الى القارئ

الامة العربية الاسلامية واسباب مناعتها وقوتها

بقلم : البشير بن سلامة

قرأت بجريدة لومند (1) فى ركنها القار « يوما بيوم » وتحت عنوان « قرون وسطى » ما يلى :

« اختار العالم الاسلامي أن يحيي رأس السنة عنده بصورة مشهودة : من احتجاز رهائن لا فى طهران فقط بل في مكة أيضا ؛ ومن مظاهرات ضد أمريكا في إيران طيلة هذه الأيام ، واليوم في باكستان . ويتحدث الناس عن التعصب الديني عند المسلمين ولكن يجب أن لا ننسى أنهم دخلوا القرن الرابع عشر للهجرة . وهذا التاريخ كان ، حسب الرزنامة المسيحية ، علامة لانتهاء الحروب الصليبية الكبرى ، والانفصال بين الغرب والشرق [بالنسبة للكنيسة] وللحروب الدينية ... ولكل قرونه الوسطى » . (آلان وودرو)

فى هذا الركن الذى يتداول عليه كتاب من مستوى عال ويتناولون فيه كل يوم وبايجاز بليغ أحداث العالم فى هذه الجريدة المرموقة عالميا ، وبهذه العبارات القليلة الدقيقة الموزونة يتجلى بالضبط رأى الغرب فى العالم الاسلامى عربيا أو غيره .

والفكرة السائدة هى أن العالم الاسلامى يتحرك لا محالة وبعنف وأن التعصب الدينى هو قسمته وحظه لأنه يعيش قرونه الوسطى أى فترة الظلام والجمود وضيق النظر وبطلان التسامح ولهذا فهو جدير بالرثاء إن لم نقل بالاحتقار .

وأكثر من هذا فان أخطر ما يقصده هذا المعلق ويريد ضمنيا ان يسلم به قارئه هو أن العالم الاسلامى ، وهو يعيش اليوم قرونه الوسطى ، قد مر حتما بعصور الوحشية . وبهذا يضع بين قوسين فترة الازدهار الحضارى الذى أشعت به مدنية الاسلام على العالم بأجمعه .

هذا هو الرأى السائد عن الاسلام والمسلمين فى العالم الغربى ولم يشذ عن ذلك إلا القلة القليلة من العلماء والمثقفين الذين لم يقدروا الى اليوم على

Le Monde du Vendredi 23 Novembre 1979 p. 1. Au jour le jour (1) (Moyen Age) Alain Woodrow

تغيير ما تراكم فى الأذهان من الحقد والبغض والتعصب نتيجة ما مرت به أوروبا من قرون وسطى حقيقية . وكان آنذاك العالم العربى الاسلامى فى أوج ازدهاره.

ولست أدرى بماذا علق هذا الكاتب عندما علم بمجـزرة فويبانـا فى تلك الهستيريا الجماعية التى لم تعرفها القرون الوسطى ؟ وماذا يفكر فى المجازر المتكررة التى تكتسح ايطاليا يوميا ؟ أو ماذا يقول عن الحرب الدينية المستشرية فى ارلندا منذ سنوات وآخر ضحية لها اللورد منتباطن قريب ملكة انقلترا ؟ وهل يضع بين قوسين ماى 1968 بفرنسا ؟ وهل يغمض عينيـه أمـام أكبـر مظلمة قام بها الغرب فى عصور ازدهاره وهى تشريد شعب كامل من أرضه ألا وهو الشعب الفلسطينى ؟

ولست أدرى أيضا كيف سيعلق على ما أسفرت عليه قمة الرؤساء والملوك العرب المنعقدة فى تونس من 20 الى 22 نوفمبر 1979 ؟ إنه سيسكت لا محالة لأنه سيستشف من وراء مقررات هذه القمة عـزيمة الأمـة العـربية الاسلامية لتجاوز هذه السلبيات لا فى القرارات السياسية فحسب بل فيما يخص رفع التحدى الحضارى إذ أوضح « المؤتمر أن وحدة العمل العربى المشترك فى جميع المجالات لانشاء المؤسسات العربية والاخذ بأساليب التقنية الحديثة ضرورة لا بد منها لمجابهة التحديات والأخطار التى تتعرض لها الأقطار العـربية وكذلك لبناء مستقبل أفضل يتوفر فيه المزيد من أسبـاب العـزة والكـرامة والمنـاعة للأمـة العـربية » (2).

وهذا بالضبط ما عناه السيد رئيس الجمهورية التونسية بعبـارة « كسب الرهان الحضارى » وأشار بصريح العبارة الى « أنه من أوكد واجبات الـدول العربية أن تتجه عنايتها الى تكوين الأجيال الصاعدة تكوينا يجعلها تنهل من العلوم الحديثة وتسيطر على التكنولوجيا بما يكسبها القدرة على متابعة حـركة التطور والمساهمة فيها بنصيب متزايد . فقضية تحويل التكنولوجيا لا تحل عن طريق الخبراء الأجانب وإنما حلها الوحيد بتكوين الأدمغة العربية التى تستطيع أن تضطلع بمسؤوليات التنمية فى مستوى التخطيط وفى مختلـف مراحـل التنفيـذ » .

ويظهر أن عزيمة العرب متجهة الى كسب هذا الرهان الحضارى ومقتنعة اشد الاقتناع بضرورته وهى مدعوة الى توفير الاسباب المفضيـة اليـه من تعليم وتكوين وغيرهما . غير أنه لا يمكن كسب هذا الرهـان إلا باجتيـاز عقبتين تظهران لا رابط يربطهما بما نحن فيه ولكن هما صلب موضوعنا وجوهره .

---

(2) من البيان الختامى الذى تلاه الاستاذ الشاذلى القليبى الامين العام للجامعة العربية أمام الرؤساء والملوك العرب يوم الخميس 22 نوفمبر 1979 .

فالعقبة الأولى هي أن جل المجتمعات العربية الاسلامية بحكم ما ران عليها اثناء عصور الانحطاط من تخلف وجهل وجمود لا تحتضن بسهولة علماءها ومثقفيها ولا توفر لهم المناخ الملائم للخلق والابتكار ولا تبوئهم المكانة اللائقة بهم . ولهذا فان الكثير من العلماء والمثقفين العرب أطباء كانوا أو مهندسين أو كتابا أو رسامين أو غيرهم استطابوا العيش في المجتمعات الغربية ووجدوا الظروف الملائمة لتفتيق مواهبهم العلمية أو الابداعية ربما هروبا من نضال لا يقدر عليه إلا الواحد في الألف في الأوطان . ولهذا فانه قل أن يجد مبتغاه طالب مجد عن طريق العلم والمعرفة إذ المجد في المجتمعات العربية الاسلامية لا يأتي غالبا إلا عن طريق السياسة أو المال .

ولهذا فان اجتياز هذه العقبة لا يكون إلا بتهيئة المناخ لهؤلاء الذين آثروا الهجرة الحسية وحتى المعنوية في كثير من الاحيان . وهذا لا تقدر عليه الا السلطة السياسية بتوفير الامكانيات المادية والمعنوية وخاصة منها ما يتعلق بممارسة حرية التعبير والاصداع بالرأى وما يتصل بتمكين هؤلاء من معرفة الجمهور لهم حتى يعتز بهم ويفاخر ويضعهم في المرتبة اللائقة بهم مثلما هو الشأن في المجتمعات الغربية المتقدمة .

والعقبة الثانية تتمثل في شعور الجماهير والنخبة العربية والاسلامية بعظمة الاسلام وحضارته وبنائه رؤية خاصة للكون شاملة لكل مقتضيات الحياة من جهة ، وبتغلب الغرب واغتصابه لدخائل الانسان العربي والمسلم الى حد الاستلاب من جهة أخرى . وهذا التمزق بين هذين الشعورين أحدث ثنائية لم يقدر العالم العربي والاسلامي على تجاوزها والخروج منها . وهي تمثل وجها مأسويا من أزمة الفكر العربي الاسلامي ما يزال ينتاب الأفكار والعقول منذ النهضة الاولى ولم يجد من الفلاسفة والمفكرين والمصلحين من أقدم على حل هذه المعضلة وواجهها بكل شجاعة وأعمل فيها الاجتهاد وجعل منها نسقا فكريا وفلسفيا يعتمد لحل الجزئيات والتفاصيل اللهم إلا ما قام به بعض المصلحين السياسيين في قلة من البلدان العربية والاسلامية (تونس مثلا في شخص الحبيب بورقيبة) .

وهذا الوجه المأسوي من الأزمة بحر طام بدأت ملامحه تظهر لا محالة عند اصطدام البلدان العربية والاسلامية بحضارة الغرب ولكن منطلقه برز مع ظهور الاسلام نفسه عندما عجز المسلمون عن تطبيق مبادىء الاسلام فيما يخص نظام الحكم بايجاد المؤسسات والهياكل التي تضمن استمرار الحكم على قواعد الشورى واختيار الأتقى والأفضل والأنقى والأقدر .

فبينما أوجد الخلفاء الراشدون وبعدهم الفقهاء باستنادهم الى مبادىء الاسلام كل الأجوبة عن متطلبات الحياة الجديدة للمسلمين فيما يخص العبادات

والمعاملات (ضبط عمر القانون الجزائى والوراثة والقصاص وأوجد تنظيما ماليا محكما للدولة الاسلامية مثلا) فانهم لم يقدروا على اختيار نظام للحكم فى أعلى مستوى يتجاوب مع قيم الاسلام فى نظرته للفرد والجماعة ووصل بهم المطاف الى إيجاد مفهوم للحكم تمثله الخلافة التى لم تكن الا ملكا عضوضا مرا مغلفا بقشرة مستساغة مطعمة بالدين .

ودامت حيرة المسلمين طويلا فى هذا الشأن وكانت سببا فى الثورات والفتن ثم الانحطاط وهى الآن مشكل المشاكل بالنسبة الى الثورة الايرانية مثلا ألتى ترفض أساسا كل مفاهيم الحكم المتأتية عن الغرب الذى أجاب فى الواقع بكل التفاصيل والدقة ، بعد ثورات وفتن وحروب أيضا ، عما يتطلبه الحكم من ضمانات للفرد والجماعة من أجل الحرية والكرامة والازدهار .

وإنى أسوق هذه الحكاية التى جرت زمن الخليفة العباسى المأمون لأدلل على أن هذه القضية من مجموع الأزمة المذكورة هى باقية الى اليوم بالنسبة الى الأقطار العربية والاسلامية فى جلها إن لم أقل كلها : « روى أن المأمون كان يوما فى مجلس مذاكرته إذ دخل عليه على بن صالح الحاجب فقال : يا أمير المؤمنين رجل وقف بالباب وعليه ثياب غلاظ مشمرة يطلب الدخول ، فعلمت انه بعض الصوفية . فقال : إئذن له . فدخل رجل عليه ثياب قد شمرها ، ونعله فى يده ، فوقف على طرف البساط ، ثم قال : السلام عليكم ورحمة الله ! فقال المأمون : وعليك السلام ! قال : أتأذن لى فى الدنو اليك ؟ قال : أدن ، فدنا ، ثم قال : اجلس ، فجلس ، ثم قال : أتأذن لى فى كلامك ؟ قال له المأمون : تكلم بما تعلم إن كان لله فيه رضى. قال : اخبرنى عن هذا المجلس الذى أنت فيه ، جلسته باجتماع من المسلمين عليك ورضاء بك ، أم بالمغالبة لهم والقوة عليهم بسلطانك ؟ قال : لم أجلسه باجتماع منهم ولا مغالبة لهم بل كان يتولى أمر المسلمين سلطان قبلى احتمله المسلمون ، إما على رضى وإما على كره فعقد لى ولآخر معى ولاية هذا الامر بعده باتفاق من حضره من المسلمين وأخذ على من حضر بيت الله الحرام ـ من الحاج ـ البيعة ولآخر معى ، فاعطوه ذلك إما طائعين وإما كارهين ، فمضى الذى عقد له معى على السبيل التى مضى عليها . فلما صار الامر الى علمت أنى احتاج الى اجتماع كلمة المسلمين فى مشارق الارض ومغاربها ، بل على الرضى بى . ثم نظرت فرأيت أنى متى خليت على المسلمين أمورهم اضطرب حبل الاسلام ومرج عهدهم ، وانتقضت أطرافهم وغلب على الناس الهرج والفتنة ووقع التنازع ، فبطلت أحكام الله ولم يحج أحد بيته الحرام ، ولم يجاهد الناس فى سبيله ، ولم يكن لهم سلطان يسوسهم ويجمعهم ، وانتقضت السبل ولم يؤخذ لمظلوم من ظالم فقمت بهذا الامر ، حياطة للمسلمين ، ومجاهدا لعدوهم وضابطا لسبلهم ، وآخذا على

أيديهم قصدا ، الى أن يجتمع المسلمون على رجل تتفق كلمتهم على الرضى به ، فأسلم الامر اليه ، وأكون كرجل من المسلمين ، فمتى اجتمعوا على رجل من المسلمين ورضوا به خرجت اليه عن هذا الامر . فقال : السلام عليكم ورحمة الله ! وقام . فأمر المأمون علي بن صالح الحاجب أن يوجه من يتبعه حتى يعلم أين يقصد ، فعمل على ذلك ثم رجع اليه فقال : يا أمير المؤمنين وجهت من اتبع الرجل فمضى الى مسجد فيه خمسة عشر رجلا في مثل هيئته وزيه ، فقالوا : لقيت الرجل ؟ قال : نعم ، قالوا : فما قاله ؟ قال : ما قال إلا خيرا. ذكر أنه ضبط أمر المسلمين حتى تأمن سبلهم ويقوم الحج ويجاهد في سبيل الله ويأخذ للمظلوم من الظالم ولا تعطل الاحكام فاذا رضى المسلمون بامام واجتمعوا عليه ، سلم الامر اليه وخرج اليه منه . قالوا : لسنا نرى بهذا الامر بأسا وافترقوا :. قال يحيى ابن أكثم [كان قاضيا وفقيها] : فأقبل المأمون وقال لي : يا محمد كفينا مؤنة هؤلاء بأيسر خطب ، فقلت : الحمد لله على ما ألهمك من السداد والصواب في القول والفعل » (3) .

هذه هي إذن ماساة العرب والمسلمين منذ أول أمرهم ، غير أن المسلمين لقرب عهدهم بالرسول والخلفاء الراشدين وجدوا في الدين وازعا مكنهم من تنظيم حياتهم وبناء حضارتهم ولكن لما اختلطت السبل وضعف وازع الدين كان الانحطاط والتدهور .

والآن ، وأهل الحل والعقد من المسلمين لم يوجدوا قديما ما يسد هذه الثغرة مثلما فعله الغرب بسن الدساتير والقوانين الضامنة للديمقراطية وحرية الافراد فانه ليس لنا إلا أحد أمرين : إما أن يسن أهل الحل والعقد من المسلمين دستورا منبثقا من الاسلام تطبقه الأقطار العربية والاسلامية عن رضا منها واقعنا وإما أن نأخذ عن الغرب في هذا المجال ما به الحاجة لنضمن الديمقراطية والحرية في بلداننا وتبعد عن مجتمعاتنا الظلم والمحسوبية والحكم المطلق والدكتاتورية وهي آفات لا يطفو بسببها على سطح الحكم الا الانتهازي والمغامر والمستهتر بالقيم .

وهكذا فان العالم العربي والاسلامي ، لا يمكن له أن يكسب الرهان الحضاري ، إلا اذا عمل على الأقل على اجتياز هاتين العقبتين ولا إخال الأمة العربية الاسلامية إلا قادرة على ذلك .

البشير بن سلامة

---

(3) أبو عبد الله بن الأزرق الأندلسي ، بدائع السلك في طبائع الملك ، دراسة وتحقيق الدكتور محمد بن عبد الكريم ، الدار العربية للكتاب ، ليبيا – تونس سنة 1977 ، ص. ص. 480 الى 482 .

سياحات "النفري"

شعر : محي الدين خريف

1) عنهم ولهم

لهم أمضى وأشرب من محيط الملح
وآكل خبزتي في ظل زيتونه
لهم أمضى
وأنظر في وجوه الناس
وارقبهم
ويعرف أنني من طينة بالنار معجونه

2) حكايات

سأحكي لكم فهيا واسمعوا قولي
ولا تلغوا حكاياتي
سأحكي لكم عن الآتي

(*) محمد بن عبد الجبار بن الحسن النفري شخصية مغمورة في تاريخ التصوف الاسلامي عاش في النصف الاول من القرن الرابع الهجري وقد اشتهر بكتابه « المواقف » وهو مقسم الى فصول عددها سبع وسبعون كل فصل منها موقف ويبدأ كل موقف بعبارة « أوقفني ... وقال » .

يظللنى ويعرف أننى الآتى
ويشربنى على مهل
ويسكن فى جراحاتى
له منى اذا ما جئت املأ جرتى من نبعه
أن أصطفيه كشعر أيامى
وأحمله من المهد الى اللحد
على صهوات أحلامى

3) العــــودة

أعود من الزمان
البحر يعرفنى وأعرف أننى البحر
بعيشك هل رأيت العائد الملاح
يمر بحانة ويفر من أخرى
وقد شربته فى غداوته الأقداح

4) التــوغــول

كأن عصورها قد سافرت فينا
تردد ما تبقى من أغانينا
نفر اليك من جرح الى جرح
ويحسن بالتذكر
أن يذوب الدمع فى الملح

محيى الدين خريف

هل يشهد القرن الخامس عشر الهجري عودة المسلمين إلى الإسلام ؟

بقلم : محمد فاضل الجمالي

ها هو القرن الخامس عشر الهجري يطالعنا ونحن على أبواب نهضة جديدة بعد قرون عديدة من التخلف والاستعباد سببهما الجهل والظلم والاستبداد وانها لفرصة ثمينة نحاسب فيها أنفسنا ، ونتساءل : أين نحن ؟ والى أين المسير ؟ وفي أي اتجاه ؟ ما هو الاتجاه الذى نختاره لنهضتنا الجديدة فى القرن الخامس عشر الهجرى ؟ أهو الاتجاه نحو الغرب ؟ أى أن نقتبس المدنية بعجرها وبجرها ؟ أم هو الاتجاه نحو الشرق أى أن نقلد نظاما شيوعيا معينا ؟ أم أنه عودة الى الاسلام الذى اتبعناه فارتقينا وحملنا مشعل العلم والايمان والعدالة والاخاء الى البشرية كافة وأهملناه فاندس بيننا الجهل والظلم والاستبداد وما يرافق ذلك من فقر وفساد واستعباد ؟

ولاجل تقرير المصير الذاتى وتعيين الاتجاه نقترح طرح الاسئلة الثلاثة التالية على أنفسنا ونحاول الاجابة عنها بكل ما يتيسر لدينا من خبرة وبايجاز كلي :

(أ) كيف حال المسلمين اليوم وما هو موقفهم من تعاليم الاسلام ؟

(ب) لماذا نحن نعتقد بأن الاسلام هو دين المستقبل للانسانية كافة ؟

(ج) كيف يعود المسلمون فى القرن الخامس عشر الهجرى الى الاسلام ؟

للاجابة على السؤال الاول : « كيف حال المسلمين اليوم » نقول :

لو ألقينا نظرة طائر على العالم الاسلامى من المحيط الهادى الى المحيط الاطلسى لوجدنا أن العالم الاسلامى يكاد يشكل حزاما يحيط بنصف الكرة الارضية الشرقى . المسلمون يعدون ما لا يقل عن ستمائة مليون ، نسمة ، ويعيشون فى بلاد مهمة وخطيرة استراتيجيا ، وغنية جدا بالموارد الطبيعية ، من نفط ، ومعادن ، وأنهار ، وأراض واسعة . فالامكانات المادية للعالم الاسلامى لا حد لها ولكن الاحوال المعنوية من سياسية الى اجتماعية الى أخلاقية فيها بيت الداء . وهذا يقودنا الى البحث عن مصدر الداء ، لما دب الخلاف بين زعماء المسلمين بعد صدر الاسلام بسبب عوامل سياسية ومذهبية وعائلية ضعف شأن المسلمين وأصبحوا يقاتل بعضهم بعضا .

وقويت العصبيات القبلية ، ونشأ التعصب المذهبى مما أدى الى تفكك المسلمين وضعف الضمائر الاخلاقية عند البعض ، فاستبد الحاكمون . كل ذلك آل بالمسلمين الى الضعف والتخلف بعد أن كانوا قد بهروا العالم برسالتهم التوحيدية واقبالهم على العلم والتعلم ومعاملاتهم المؤسسة على العدل والرحمة . ان ضعف المسلمين هذا هيأ فرصة ذهبية للاستعمار الاوربى مع ابداء أن أوربا اقتبست من المسلمين الكثير من عناصر الفكر والقوة . بدأ الاستعمار يستولى تدريجيا على العالم الاسلامى حتى كاد أن يستولى على العالم الاسلامى كله وذلك بعد الحرب العالمية الاولى مباشرة ، والاستعمار بدوره عمل على اشاعة التفرقة والقطعية بين المسلمين وشجع الجمود والتخلف ولكنه لم ينجح فى اطفاء شعلة الاسلام ولله الحمد .

ومنذ الحرب العالمية الاولى والمسلمون فى كل مكان يقاومون الاستعمار وهاهم اليوم على أبواب القرن الخامس عشر الهجرى وقد حققوا لمعظم أقطارهم الاستقلال السياسى ، ولكنهم ما يزالون مفككين منقسمين على أنفسهم يكونون مجموعة دول ودويلات ، قد تكون غنية ماديا ولكنها متخلفة اقتصاديا وتقنيا وثقافيا واجتماعيا . لقد استيقظ المسلمون بعد قرون من التخلف ليجدوا أنفسهم مغمورين فى تيارات المذاهب الفلسفية والاجتماعية المتصارعة فيما بينها . فمن مذاهب اشتراكية ماركسية متعددة الى فلسفات رأسمالية علمانية وكلها مغلفة بشعارات جذابة ولها دعايات قوية ، ولما كانت الدول الاسلامية كلها متخلفة فى الحقل التقنى والعسكرى فانها مضطرة لان تلتجىء الى أحد المعسكرين العملاقين الشرقى أو الغربى لاستجداء السلاح . وهذا مما يضعف الاستقلال السياسى بعض الشىء اذ أنه يتطلب من الدولة المشترية أن تدارى سياسة الدولة القوية والا فلا تزودها بالسلاح .

ويصدق القول نفسه على التصرف بالثروة الاسلامية الهائلة فانهـا قـد توجه الى البلاد المصنعة لشراء الكماليات وجلب الجدة التقنية وتأسيس المعامل أو ايداع الثروة فى المصارف والمصالح الغربية . فثروة النفط مثلا قد تبذر فى اقتناء الكماليات أو فى شراء الاسلحة التى لن تستخدم فى مقاومـة العـدو الخارجي بل لمجرد اعادة ثروة النفط الى الغرب وتشغيل معامل أسلحتـه وتصريف القديم منها فى البلاد الاسلامية لتحل محلها أسلحة جديدة يستخدمها لنفسه ولحلفائه . يمنون علينا بالسلاح ولكنهم لا يزودوننا بما نستطيع التفوق به على خصومنا ! التخلف التقنى هو من الظاهرات الملموسة فى كـل أنحـاء العالم الاسلامى ، ان المدنية الصناعية غزتنا باختراعاتها وتقنياتها فأصبـح المجتمع الاسلامى مجتمع استهلاك أكثر منه مجتمع انتاج . فالمسلمون اليوم يقتنون السيارات والقطارات والطيارات من الشرق أو الغرب وهم لا يحسنون صنعها . كما أنهم يقتنون الراديو والتلفاز والثلاجة وسائـر الآلات والاجهزة الكهربائية وهم لا يقومون بصنعها وقد يخفقون حتى فى اصلاح العاطل منها. والاقتصاد الاسلامى يتراوح بين الفردية التى قد تفرط فى الربح أو الاحتكار وبين التأميم الذى قد يمنى بالبرقراطية الخانقة والتسيب وضعف المسؤولية . ثم ان الهوة بين العمال وادارة المعمل قد تتسع فتؤدى الى الاضرابات والاضرار بالمصلحة القومية .

وسائل الاعلام الغربية قد لعبت بأفكارنا ومعتقداتنا وأخلاقنا كما تشاء ، فنحن نتأثر مما نرى فى السنما أو التلفاز ، ومما نسمع من الاذاعات،ومما نقرأ فى الصحف والمجلات ، ففى كل هذه الوسائل الغث والسمين . وليـس مـن السهل على الانسان البسيط أن يميز بين الغث والسمين ، ولذلك فقد يقع فريسة للافلام الاباحية والاجرامية ، وللروايات والصحافة المثيرة ، فكل هذه تفعل فعلها فى حياتنا اليومية شعرنا بذلك أم لم نشعر .

ان معظم المسلمين أميون لا يحسنون القراءة والكتابة ، وهم يعيشون فى عصر ما قبل العلم ، ولا سيما فى الحقل الفكرى أو المعاشـى وفـى حـقـل التقنيات والصحة العامة . والتربية الرسمية التى يحصل عليها الطفل المسلم هى فى الغالب من النوع اللفظى ، فهى لا تشجع الشاب المسلم على ممـارسة الاعمال الفلاحية أو الصناعية بأساليب تقنية محسنة . فاستعمال اليد مقرونة بالعلم وبالفكر لم تصبح القاعدة فى تربيتنا بعد . ولذلك فتربيتنـا اتكـالية اكثر منها استقلالية ، وتعنى بالالفاظ أكثر من عنايتها بالافكـار وبالافعال . ونظم التعليم عندنا وهى مستوردة من الغرب تعنى بالشكل وبالمظهر أكثر من

عنايتها باللب وبالجوهر . ولما كانت معظم النظم الغربية قد وضعت على أساس علماني أي على أساس فصل الدين عن الدولة فتقليدنا السطحي لها قد يؤدي الى عدم اهتمامنا اهتماما كافيا بالتربية والاخلاقية. ولا غرابة اذن اذا تخرج شاب مسلم من الجامعة وهو غير ملم بما يمس حياته اليومية من محتويات القرآن الكريم لانه لم يدرس القرآن الا في السنوات الاولى من تكوينه ـ وقد تصبح الثقافة المستوردة من الغرب مصدر خطر على حياة الامة حين تنشىء أفرادا منبتين من كيان أمتهم ، يكادون ينسون ذاتيتهم الاسلامية . ولا عجب اذا ما لقى التعريب أو الدعوة الى الاسلام مقاومة من قبل البعض بدعوى ان العروبة والاسلام انما يمثلان الرجعية !. وما علم هؤلاء بأن مسخ الذاتية القومية ـ الدينية والعودة الى الحياة البهيمية والالحاد هي الرجعية بعينها . وهي الجاهلية ! وكنتيجة لهذه الاوضاع وقد تكون من مسبباتها ان الفرد المسلم في العديد من البلاد الاسلامية يكاد يكون كمية مهملة ، فحياته قد تهدر بدون حساب ، وحقوقه الانسانية قد تنسى ولا عقاب . فهو ليس أكثر من أداة مسخرة في الجهاز الاقتصادي أو الاجتماعي الذي يعيش فيه عادة ـ لا رأي له ولا مشاركة في تقرير المصير .

ان معظم البلاد الاسلامية تقودها حكومات لا تمارس الفعل الثوري، والبعض من الحاكمين يحسبون أنهم يملكون البلاد والعباد. فانهم يتصرفون بثروات بلادهم كما يشاؤون، وينفقونها حيث يشاؤون. ثم ان البعض من حكام البلاد الاسلامية استورد أنظمة الحكم من الغرب الرأسمالي أو الشرق الشيوعي ناسين أو جاهلين أن هذه النظم تحوي الصالح والضار ، وأن علينا اختيار الصالح ونبذ الضار ، والبعض من حكام البلاد الاسلامية مؤمنون يغارون على الدين الاسلامي ولكنهم قد يخطئون في فهمهم لمرامي الدين الاسلامي أو قد يقصرون في تطبيقها على الحياة .

وربما كانت المسؤولية الاولى عن أوضاع الحكم الراهنة تقع على عاتق العلماء وقادة الفكر . فيندر ان نرى العالم العامل الحكيم الشجاع الذي يتولى قيادة الامة ويوجه الشعوب والحكام الى الخير والصلاح . فالاكثرية من العلماء والمفكرين يقعون ضمن واحد من الاصناف الثلاثة التالية :

أ) عالم يبتعد عن الميدان ويجلس على التل فهو لا يريد أن يتحمل أية مسؤولية ويتهرب من مجابهة مشاكل الحياة ، انه يتوخى الهدوء والسلامة .

ب) عالم يخوض ميدان المعركة وهو متزمت معصب الذهن سطحي في

آرائه وأحكامه ، انه يشجب كل جديد وكل غريب فى حقل الفكر أو الاجتماع الامر الذى يجعل الشباب المثقف يتهرب منه انلم نقل يقابله بالهزء والسخرية.

ج) عالم يماشى التيارات التى تتطلبها الظروف والسلطة الحاكمة خاصة سواء أكانت هذه التيارات صحيحة أو معتلة ، وهؤلاء قد يوصمون بالانتهازية وبالنفاق .

ففى الحقيقة ان العالم الاسلامى اليوم يفتقر الى العدد الكافى من العلماء الحكماء العاملين ، كما أنه يفتقر الى العدد الكافى من القادة الاختصاصيين فى حقول الحياة كلها . وليس أدل على ضعف العالم الاسلامى فى الحقول السياسية والعسكرية والتقنية والدعائية من موقف المسلمين ازاء العدوان الصهيونى على فلسطين . فالصهيونية استولت على بقعة هى من أقدس بقاع العالم الاسلامى وشردت سكانها من مسلمين ومسيحيين ولم تكتف بتشريدهم بل انها ظلت تلاحقهم وهم فى مخيماتهم فتقصفهم من الجو والبر والبحر ، وتزهق الارواح البريئة من أطفال ونساء وشيوخ ، ومع ذلك فالمسلمون لم يتحركوا بعد وليس لديهم سوى الكلام وابداء العواطف الجياشة والاحتجاجات الصارخة . ونستطيع أن نلخص الجواب على السؤال الاول كيف حال المسلمين اليوم فنقول : المسلمون اليوم يكثر فيهم الجهل والفقر والضعف العسكرى والتقنى ، وتتفشى بينهم الخلافات السياسية والبلبلة العقائدية حتى يؤول الامر الى التصادم فيما بينهم أحيانا . وقد يتسرب اليأس والتشاؤم الى النفوس التى لم تسق بماء الايمان من جراء هذه الاوضاع . ما أبعد كل هذه الاحوال عما يتطلبه الاسلام وعن تعاليم القرآن فالشقة واسعة والهوة عميقة بين المسلمين كما هم عليه اليوم وبين ما يريده لهم الاسلام لو عادوا اليه .

هل من عودة الى الإسلام ؟

لقد آن للمسلمين أن يعودوا الى الاسلام وأن يقوموا بدرس القرآن دراسة حية من جديد ، ويوجهوا حياتهم وسلوكهم على ضوء حكمه وتعاليمه . ونحن نميل الى التفاؤل ونؤمل أن يصبح القرن الخامس عشر الهجرى قرن عودة الى الاسلام ، ونبنى تفاؤلنا هذا على أن المسلمين خبروا المدنية الغربية بشقيها الرأسمالى والشيوعى فوجدوا فى كلا الشقين استعبادا للانسان وامتهانا لكرامته ، ذلك مع فقدان الطمأنينة والاستقرار وراحة الضمير . ففى الدمقراطيات الغربية نشهد انحلال المجتمع وانخرام حبل الامن والاستقرار ، فمن اباحية بهيمية ، الى استغلال بشرى ، الى تمييز عنصرى ، الى اضطرابات

تصحبها اضطرابات ، وأعمال فوضوية ، الى حوادث خطف وارهاب ، الى اغتيالات . فالمدنية فى الدمقراطيات الغربية فيها الكثير من ترك الحبل على الغارب ، واتباع الهوى باسم الحرية وباسم الدمقراطية ، وفيها الكثير من افساد الدمقراطية عن طريق الاغراء المادى والتأثيرات المتحيزة واللا أخلاقية من أجل كسب الاصوات . وربما كان أفظع نموذج لهذه اللاأخلاقية فى الدمقراطية هو « اللوبى » اليهودى فى واشنطن حيث تضحى بالحقوق المشروعة لعرب فلسطين ! وأما الشق الماركسى للمدنية الغربية فقد تجلت فيه السلطوية والقسوة فى معاملة الانسان فقد هلك الملايين من البشر فى عهد استالين فى الاتحاد السوفيتى . والفرد فى النظم الشيوعية يكاد يكون أداة مسخرة بيد الدولة فاقد الحرية والارادة تقريبا . انه ليس آمنا على حياته الفكرية والسياسية ، ولا ضامنا حريته فى الحركة والتنقل ، كما أنه ليس حرا فى نشاطه الاقتصادى ، كل ذلك باسم العدالة والمساواة .

ليس من ينكر بأن فى كل من النظم الغربية أو الشيوعية صفحات خيرة وايجابية . ولكن هذه النواحى الايجابية مضمونة فى الاسلام ، فالاسلام يتضمن ما فى الرأسمالية الغربية من خير مع ترك شرورها ، والاسلام يتضمن كل من فى الماركسية من خير مع تجنب أخطارها . فالاسلام يدعو الى التشبث الفردى والى التعاون بدون استغلال ولا فساد . انه يدعو الى العدالة فى التوزيع مع ضمان مكافأة الانسان المجتهد ومع ممارسة الاحسان والرحمة . والاسلام يدعو الى الشورى وهى أسمى ميزات الدمقراطية ، وفى الوقت نفسه انه يقاوم الفرعنة (الاستبداد) ويشجب الغوغائية. ولما كان المسلم المعاصر يريد الخروج من ظلمات التخلف ويسلك سبيل النجاة فليس من الصعب عليه أن يجد ضالته فى دينه وقرآنه . ففى دينه وقرآنه يجد سبل الخلاص من الضعف والفقر والجهل والمرض والانحلال الاجتماعى والتمزيق السياسى من جهة ، كما أنه يجد سبل الرقى وتحقيق انسانيته واسترجاع عزته وكرامته . ولا عجب اذا ما رأينا أنظار العالم وأفكاره تتجه من جديد الى الاسلام . والعديد من الباحثين الامريكيين يعد قائمة تحتوى على أعظم مائة شخصية فى تاريخ الذى تتجلى فيه عظمة الاسلام وسمو الاسلام . ولا عجب اذا ما رأينا أحد الباحثين الامريكيين يعد قائمة تحتوى على أعظم مائة شخصية فى تاريخ الانسان ويضع على رأسهم نبى الاسلام محمدا عليه الصلاة والسلام .

وها نحن فيما يلى نشير الى بعض المزايا التى تخول الاسلام أن يكون دين المستقبل والانسانية جمعاء :

(1) الاسلام يعلمنا بأن هذا الكون يسير وفق نواميس وقوانين رياضية وطبيعية واجتماعية ــ أخلاقية . **وأنه أى الكون لم يخلق عبثا** بل ان الخالق العظيم مبدع الكون هو الذى أودع هذه القوانين وهذه النواميس فى الكون . وهو الذى خلق الانسان وكرمه فجعله خليفة فى الارض ليكتشف أسرار الخليقة وليساهم فى اعمار الارض ، ولو قام الانسان بدوره فى الوجود لحل النظام والعمل فى الحياة محل الفوضى والكسل ولحلت الهداية محل الضلال ولحل الامل والطمأنينه فى النفس محل اليأس والقلق ، فالانسان المؤمن فى هذا الكون سعيد فى دنياه وآخرته .

(2) الاسلام دين التوحيد والتكامل : انه يدعو الى توحيد الخالق والاهتداء بهديه . ثم انه يدعو الى التوحيد والتوفيق بين عناصر الوجود . انه يربط ويوحد بين العلم والاخلاق ، الزوج والزوجة ، وبين الدين والدولة ، وبين العلم والايمان ، بين العلم والعمل : وبين الفكر والعاطفة والارادة ، وبين أبناء الامة الواحدة والوطن الواحد ، ثم انه يربط ويؤاخى بين الاقوام والشعوب . ولو اعتنق البشر كلهم الدين الاسلامى لاصبحت الانسانية كلها أمة واحدة .

(3) الاسلام دين الاستعداد والجهاد : لو اتبع المسلمون تعاليم القرآن لكانوا مستعدين لمجابهة العدوان الاسرائيلى ولقاموا بواجب الجهاد . والاستعداد والجهاد يتخذان دورا خارجيا حين يجابه المسلم عدوا معتديا يغزوه من الخارج ودورا داخليا حين يغالب المسلم نزواته فيكبح جماحها ، أو حين يقوم ببناء نفسه أو بناء أمته ووطنه ، وقد سمى الجهاد ضد العدو الخارجى بالجهاد الاصغر والجهاد فى الداخل بالجهاد الاكبر .

(4) الاسلام دين الاخوة والمساواة بين بنى البشر فلا تتزيق فى الاسلام بين الناس على أساس القبلية أو العنصر أو اللون أو الجنس . والناس كلهم سواسية وأكرمهم عند الله أتقاهم . « انما المؤمنون اخوة » .

(5) الاسلام دين العلم والحكمة : الاسلام يحض على طلب العلم وعلى البحث عن الحقيقة عن طريق المشاهدة والتجربة وعن طريق التحقيق والتفكير والتأمل وآيات القرآن الكريم والاحاديث النبوية عديدة فى هذا الباب .

(6) الاسلام دين العدل الاجتماعى المقترن بالاحسان والرحمة : المسلم يعلم أن ثروته هى من الله وانها ينبغى أن تنفق فى سبيل الله لاسعاد حاله واسعاد

المحتاجين من أبناء أمته . « وفى أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم » والقرآن الكريم يشجب الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله . فالمطلوب من المسلم ممارسة الاحسان والانفاق الى جانب تحقيق العدل الاجتماعى ولو كان العالم الاسلامى مسلما حقا لما وجد فقير أو محتاج بين المسلمين اليوم .

(7) الاسلام دين الاعتدال فى التمتع بالخيرات والملذات: انه لا يدعو الى الحرمان مما خلقه الله من زينة ومتع فى الحياة . وليس فى الاسلام كبت بل هنالك مسؤولية ونظام فى التمتع بالحياة . فالاسلام يرتفع بالانسان عن البهيمية ويشجب الاسراف والانهماك . ثم انه يحل الطيبات ويحرم الخبائث كالزنا وشرب الخمر والقمار وأكل الخنزير والموقوذة والمتردية الخ ...

(8) الاسلام دين الحرية المسؤولية وممارسة « الشورى » فى الحياة ... «وشاورهم في الامر...» والشورى في الحكم هى الدمقراطية بمعناها الصحيح . هذا وان الاسلام يشجب الغوغائية وحكم الرعاع كما أنه يشجب « الفرعنة » والاستبداد .

(9) الاسلام دين التكافل والتآخى بين البشر ، انه يوحى بالاتحاد ونبذ التفرقة « واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا » . « انما المؤمنون اخوة فأصلحوا بين أخويكم » ، ثم انه يوصى بممارسة « الامر بالمعروف والنهى عن المنكر » كما يدعو الى « التواصى بالحق والتواصى بالصبر » ، أى أنه يأمر بالتعاون والتكافل فى ممارسة الخير والحق ومكافحة الشر والباطل . ولو أصبح المسلمون مسلمين حقا لما احتاجوا الى مراقبة بوليسية .

(10) الاسلام دين السعى والعمل والانتاج ؛ انه يحض على العمل ويدعو الى كسب الرزق الحلال . « وان ليس للانسان الا ما سعى » « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون » .

(11) الاسلام دين الفضيلة والخلق الكريم : المسلم مؤدب لطيف وعف شريف ، انه يعامل الناس بالرفق وبالحسنى ، فلا يكون فظا ولا غليظ القلب وانه يتبع قوله تعالى : ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن » وقوله تعالى مخاطبا نبيه : « وانك لعلى خلق عظيم » .

(12) الاسلام يربي المسلم ماديا ومعنويا ، ويدخل في نفسه الطمانينة والامل بتوجيهه نحو خالقه واعتماده عليه ، وذلك بتكليفه بتادية الفرائض من صلاة وصوم وزكاة وحج الى « بيت الله الحرام » .

هذه نماذج من مزايا الاسلام الطيبة وهو آخر الاديان السماوية وأكملها . انه يتسم بالنظرة الشاملة الى الوجود الموحدة لعناصر الوجود ، ثم انه يرتفع بالانسان لادراك خالق الوجود . انه يضمن للانسان الموقع الكريم في هذا الوجود . انه دين الانسانية كافة ويقود الانسانية الى السعادة والطمأنينة في هذه الحياة الدنيا وفي الآخرة .

كيف يعود المسلمون الى الاسلام :

لقد خسر المسلمون أية خسارة وتاخروا أيما تأخر يوم توقفوا عن الاهتداء بهدى القرآن الكريم وجهلوا جليل أحكامه . واليوم وقد تيقظت معظم الشعوب الاسلامية في عالم يسوده القلق وتنتشر فيه الفوضى في القيم ويكثر فيه الارهاب هل سيعود المسلمون الى الاسلام ؟ لسنا في موقف من يتنبأ حول المستقبل . ولكن لكل منا الحق أن يأمل . بشرط أن يقترن الامل بالعمل . نحن نأمل أن يرجع المسلمون الى الاسلام في القرن الخامس عشر الهجري . لا سيما اذا عملنا جميعا ويدا واحدة وتغلبنا على العقبات التي تعترضنا في طريق العودة ، وذلك بتحقيق الشروط المطلوبة لتاسيس المجتمع الاسلامي الصحيح . أما العقبات التي قد تعترضنا في الطريق فانها قد تكون داخلية وخارجية .

أما في الداخل فانها تتمثل في بعض من تثقفوا بالثقافة الغربية ، فتشربوا بالالحاد أو بالعلمانية ، وقد يكون بعضهم في مواقع القيادة والمسؤولية في بلادهم.مشكلة هؤلاء هو أنهم يجهلون حقيقة الاسلام وهم يحكمون على الاسلام من واقع المسلمين فينسبون للاسلام التخلف والانغلاق والاسلام براء من كل تخلف وكل انغلاق . ان هذا النفر ان وجد يحتاج الى تثقيف وتعريف بحقائق الاسلام وبدور الاسلام في نهضة الامة وارتقائها نحو الحياة الحرة الكريمة . وأما العقبات الخارجية فانها تتمثل في الدعاية المغرضة وتشويه الحقائق والتفسير الخاطىء الذي يبثه أعداء الاسلام التقليديين وفي مقدمتهم الصهاينة والمتعصبون من المبشرين والاستعمار الغربي والنظم الشيوعية التي تكافح الاديان ، فكل هؤلاء الاعداء يصمون الاسلام بالجمود والرجعية والقسوة ، وأنه دين الحروب ودين السيف ، وأنه يحجر المرأة الى ما هنالك من كليشمات

معروفة ومردودة ، ان هذه العقبات الداخلية منها أو الخارجية تذوب وتخرس متى توفرت العزيمة والوسيلة للبناء الاسلامى الصحيح . والعودة الى الاسلام فى نظرنا تتطلب الامور التالية :

(1) زعامة اسلامية حكيمة تتصف بالعلم والتقوى والتفتح على العالم وقوة الشخصية . زعامة لا تخشى فى الحق لومة لائم .

(2) توفر رؤساء دول وحكام فى البلاد الاسلامية مؤمنين يعرفون الاسلام على حقيقته الناصعة يمارسون الاحكام والاخلاق الاسلامية بغيرة وحماس .

(3) توفر أجهزة توعية اسلامية على نطاق واسع واعتبار المساجد مراكز اشعاع وتنوير لابناء الشعب كافة .

(4) توفير التربية الاسلامية الحركية الحية للمسلمين كافة من الطفولة حتى الشيخوخة ، واعداد أساتذة لتدريس علوم الدين على مختلف المستويات، ولا سيما المستوى الجامعى .

(5) نفوذ الروح الاسلامى فى كل المؤسسات والمنظمات السياسية والاعلامية والعمالية والاجتماعية والاقتصادية .

(6) التأكيد على أن تكون العائلة الاسلامية خلية اسلامية سليمة . وأن تنشىء الاجيال الصاعدة تنشئة اسلامية صحيحة .

(7) التأكيد على جعل البيئة فى الريف وفى المدن بيئة اسلامية مزدهرة خالية من الادران المادية والمعنوية .

(8) العناية بنشر التربية الاسلامية فى البلاد التى تقطنها أقليات اسلامية فى كل أنحاء العالم ، والتأكد من أن تكون التربية الاسلامية تربية حياة وأفعال لا تربية ألفاظ وأقوال فحسب . ومن المفيد أن نذكر هنا بأن قوة الصهيونية العالمية التى نجابهها اليوم ترجع الى حد كبير الى تأسيس مدارس « الاليانس الاسرائيلى » التى بدأت فى الانتشار فى المجتمعات اليهودية فى كل أنحاء العالم بداية من 1866 ميلادية .

(9) توعية الجماهير المسلمة بأن الاسلام يشمل حياة الانسان من كل نواحيها . فهو لا يقتصر على العبادة فحسب بل يشمل أيضا العقيدة والاخلاق والمعاملات . ولو شبهنا الحياة الاسلامية بشجرة فالعبادة تكون الغذاء والارواء الذى نوفره للشجرة .

(10) تأسيس قرى نموذجية ومشاريع اقتصادية واجتماعية تدار على القواعد الاسلامية ، بحيث تصبح هذه القرى وهذه المشاريع نماذج يحتذى بها في كل أنحاء العالم الاسلامي .

(11) تأسيس نظام سياسي يبنى على مبدأ الشورى يحترم كرامة الانسان الفرد ويضمن الحريات الاساسية وحقوق الانسان وفق تعاليم الشريعة الاسلامية .

(12) تأسيس نظام اقتصادي انساني يشجع المبادرة الفردية في جهة ويعمل على تحقيق العدل الاجتماعي من الجهة الاخرى .

(13) الحاجة الى التفتح على العالم واقتباس الخبرات الخيرة الجديدة حيثما وجدت ان في الشرق أو في الغرب .

(14) العمل على تأمين الاكتفاء الذاتي في الانتاج وعدم التعود على البذخ والتبذير في حياة الامة .

(15) السعي لتأسيس رابطة شعوب اسلامية تربط وتوحد الشعوب الاسلامية كافة متجاوزة الخلافات المذهبية . والعمل بجد على تأسيس رابطة حكومات اسلامية توحد بين اقطار العالم الاسلامي دينيا وسياسيا واقتصاديا وثقافيا .

وصفوة القول : ان الانسانية اليوم هي في أمس الحاجة الى الاسلام والى العمل على ضوء تعاليم الاسلام ، فما نأمله ونرجوه هو أن يكون القرن الخامس عشر الهجري عهد عودة المسلمين الى الاسلام ومتى تحقق ذلك على الوجه الصحيح فسيدخل الناس في دين الله أفواجا . وهو ما نتمناه للبشرية كافة .

وفي الختام نردد قوله تعالى :

« هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون » .

الدكتور : محمد فاضل الجمالي

(الجامعة التونسية)

ليـالى الضجـر

قصة حياة بن الشيخ

كان يبحث عن لحظة متعة فى خضم الصدف . كانت تبحث عن نفسهـا فى لجج الافكار المتدهورة . كان الدهر متحطم الضلوع يبحث عن كيانه فى زحمة الاحداث المتقلبة . كانت الرياح تزمجر باحثة عن أمل غابر افتقـدته فى ليلـة عاصفة ، مريبة الكآبة . كانت السماء تنوح . تبحث عن القمـر الذى أختلس منها عنوة . كان القمر قد مات مشنوقا وهو يبحث عن عوالم أسطورية يختفى فيها عن أعين مطارديه الاغبياء . كان رواد السلام يبحثون عن طـريقة مثـلى ليعلنوا الحرب على البسطاء السذج النائمين فى سفح الشعـارات المـزيفة .. والقيم المحتضرة . فى الغابة النائية ذئاب تعوى باحثة عن فريسة تسـد بهـا الرمق .. وفى المقبرة القريبة غربان تنعق ، تبحث عن أموات أحياء ما زالوا يزفرون همومهم ، يصدعون آذان الكون فى ذل رخيص .. وأحياء أموات فى القبور الخربة قد ضمد السبات جراحهم ، والقت بهم يد الـرحمة ، والـراحة الأبدية وسط مخادع من نور تتلألأ فى الأفق الفضى الضياء .

كان الكل يبحث عن شىء ما . وكانت الايام تبحث عن الكل . تنتظر لحظة غفوة لتمحق حماقات الجميع . ومتناقضات الجميع .. تدوس سخافات الجميع فى شرانق الخريف المضجرة .

....

قالت وزفير أقفال تغلق حول أقدام مجرمين أبرياء يصك سمعها :

ــ هذه المدينة الخرساء ــ ملعونة . مخنوقة الانفاس . حتما لن أجـد فيهـا نفسى أبدا . لا بد من الرحيل بعيدا .. بعيدا .. سأحاول أن ألجم شكيمـة الغد المعاند .. ألاحق المجهول ..

نفث دخان سجارته ، ليهمس بصوت مرتعش كأنين إنسان يدفن حيا :

- ليس الحل فى الهروب من المدينة المخنقة الانفاس . إنما الحل هو أن تعرفى كيف تهربين من ذاتك التى لا تتركك تلتقين بذاتك . هى تقتفى خطاك أينما رحت .. أينما حللت ...

كادت تصرخ فيه ناقمة على غبائه . كيف الخلاص من شيء لم تجده بعد !!؟

تركت العنان لنظرتها تنغمس فى دوامة السحب المهشمة الخلايا . الرحيل !! إنه يخفى خلف بريقه أشجان غد قاحل .. أيام تشرد كالحة ، وليالى قحط مرعبة على الرصيف . لن تكون غير وعاء يلقى فيه سماسرة الفسق أوساخهم ، وفواضل قاذوراتهم .. الارصفة .. هناك وسط الحفر يقبع مصير الأشقياء .. هناك بين طيات الوحل تباع وتشترى همم البؤساء ...

ستجن إن صدقت أن الحياة عهر واستبداد . لئيم يدوس كريما . وشريف يفنى من الهوان مقهورا .. إذن لمن هى باقية ومبادىء صباها قد بترت بمطواة العابثين ؟

تئن أوهامها من أعمق أعماق قبور أحزانها ترقب جياد المجهول كى تفر بها الى بر الأمان ..

نكست رأسها تكتشف ما أمامها . أوشكت على الغرق فى الصحن الرابض على المائدة باستسلام شاة وديعة . كانت الملعقة مغروسة فى الصحن كراية نصر مغتصب ، ألقى بها بطل مهزوم . وكان الحساء قد أصبح دوائر .. دوائر تبحث هى الاخرى عن منطلق لتهرب من قضبان سجنها . وكانت مقلة زرقاء ، غامضة النظرات ، مبهمة الاسرار ترمقها بدهشة مستنكرة من خلال تلك الدوائر العجيبة ، تشير اليها من طرف خفى أن تتقدم .. تغوص فى يم المقلة الغريبة السحر ، تفتش عن معالم وجودها فى متاهات الدوائر المثيرة الغموض .. تبحث عن الحلم المجهول الذى يعذبها منذ سنين ، ولم تعرف طريقا للوصول اليه ...

كادت تبكى من الافكار المتمردة التى تمركزت برأسها المعطوب . تمنت لو تأخذ كل الصحون . تلقى بها أرضا . ترفسها . وترفس العين الوقحة التى أخذت تتناسل بتحد غريب لتغذو حفنة عيون جريئة . نفاذة الجاذبية ترمقها بالحاح أو فتنة وقحة . فجأة أحست أنها ربما وجدت أخيرا نفسها . وجدت ذاتها الضائعة التى قضت العمر تلاحقها دون جدوى .. ربما خلق ..؟ إعتلى وجهها شحوب سقيم يذكرها بوجه جدها وهو على فراش الموت يهمس

بصوت متقطع، تنهشه العبرات « إياك يا ابنتى ، لا تبحثى أبدا عن شىء تعرفين مسبقا أنك لن تجديه . البحث يطعن الحقيقة . والحقيقة تدمى النفوس . والنفوس الشفافة يقتلها الزحف المتواصل نحو اللاشىء » ..

لكنها متأكدة أنها ستجد حلا لألغاز حياتها فى تلك الدوائر العجيبة . مصيرها ينتظرها هناك . العالم يرقبها هناك .. لن تتراجع الى الخلف ..

....

العيون ما تنفك تطاردها .. باسمة .. مراوغة .. غاضبة . فيها غموض وفيها تحد وفيها حيرة تتقاتل مع بوادر ثورة مفترسة وتهكم أبكم .

لم تعد تفهم شيئا . ولا ترقب شيئا . إذ غدت شبه واثقة أن اللاشىء لن يتمخض أبدا عن شىء .. لكنها حتما لا بد أن تفعل شيئا ...

قال ساخرا ورذاذ ترفع أبله ينكسر فوق شفتيه :

ـ يذكرنى هذا الحساء بأيام الخدمة العسكرية . أيام الرغيف الجاف . واللوائح المقرفة . والنظم القاسية . أكره الجندية اذ كل ما فيها يذكرنى بالحرب .. والرعب .. والمجاعة .. وأنت هل تحبين الحرب ؟

أرادت أن تكون أشد قساوة منه . وأحر سخرية :

ـ الحرب أضمن وسيلة للتخلص من الأفواه الصارخة دوما ، طالبة قطعة خبز . وانجع طريقة للتخلص من الثعالب التى لم يحدد بعد مآلها ..

ـ أنت شاذة .. الحرب دمار وخراب . الفقر خلفها . والتشتت أمامها . السلم أجمل ما فى الوجود ..

ـ لأنك جبان . الحرب مغامرة وتسلية . هى متعة للراكدين . وضربة حظ للمستغلين .. ثم لا خوف علينا من مغبات حرب . نحن بلا فخر، فقراء دون حرب أو سلام .. بؤساء بالوراثة . أشقياء بالتعود . أغبياء عن عمد وإصرار.. حقا لا خوف علينا .. يمكن لك أن تلتهم باذنجان .. السلام .. باطمئنان .

ـ خبيثة أنت .. ولكن ..

بدون تفكير تركت أصابعها تنغمس فى الصحن ، تحاول القبض عنوة على حفنة الأعين السابحة فى يم الدوائر العجيبة بوداعة ملاك سفاح . إندلق الحساء . سقط الصحن على الارض . تفتت الى ألف قطعة ، كما يتفتت ترقبها كل ليلة فوق وسادة وخازة الصقيع .

نظر الجميع اليها ببسمة تخفى شذرات استنكار شنيع .. ألقى بالشوكة من يده وهو يرمقها بغل مكبوت كفهد اقتيد غدرا الى قفص :

ــ يالك من حمقاء حالمة .. ألا يكفى أنك طلبت حساء ، منفر الطعم ، ثم مع ذلك حطمت الصحن ، وشوهت ثيابك .. ألن تكبرى أبدا ؟ طفلة مجنونة وشاذة أنت ..

قهقهت فى سرها وهى تبتلع احتقارها له ولمن حولها . أحتى هذا التافه يتهمها بالشذوذ ؟ أتقول له : إنها لم تطلب حساء؟ ولم تستطع فى حياتها مطلقا أن تتحمل رؤية حساء . إنما خدعت مرة أخرى. وراحت ضحية الاسماء الرنانة المغالطة . ضحية أحرف منمقة توحى بأبهة زائفة ، مغشوشة . لقد قرأت على الورقة البنية اللون التى قدمها لها الخادم ، الباسم الثغر أكثر مما ينبغى .. المتراخى الحركات أكثر مما يجب .. « وثبة الامير الجسور » . تخيلت أفراحا عسيرة ومثيرة وهى تلمح الامير الجسور ينط وسط غابة ، وارفة الاشجار ، عابقة الاجواء ، قد امتطى جواده المطهم قاصدا ديارها ، ليختطفها من براثن الضجر المتشبث بها ولو أدى به الامر الى هد قلاع السأم فوق رأس المدينة المخنوقة الصدى .

سال لعابها للأكلة الشهية . لكن كانت الصدمة وهى تلمح الحساء الاخضر يترجرج فى جوف الصحن كعشب سحقته حوافر خنازير متمردة ، وبللته الأمطار .

ضحكت برغم الخيبة . عاد لعابها يبحث عن وكر قصى داخل حلقها الجاف . أحست نوعا ما بالطمأنينة . ليست وحدها المخدوعة على كل حال . ولا كانت الوحيدة التى تغتر بالاحرف المنمقة ، ولا بالمعانى المغشوشة . الناس كلهم مخدوعون ، والعالم بأسره مخدوع لم يستخلص بعد الزيف من الحقيقة . الماس من الحجارة .. الذهب من النحاس .. فلم يلومها هذا المترفع الغبى ؟ أهو أحسن منها معرفة ؟ ألم يغتر هو الآخر بالأسماء المغالطة ..

« ابتسامات السلام » .. ظن أنه اكتشف دنيا جديدة لم يلثم ثراها أحد قبله . دنيا كلها وفاق وسلام . ابتسم مزهوا ، وعيناه تبرقان غبطة باكتشافه . « ابتسامات السلام » حتما ستكون أكلة ..

شكت الدهشة لسانه وقد وضع الخادم أمامه صحن باذنجان مخلوط بالبصل المفروم ، تهب منه رائحة ثوم تصفع الانوف فى سخاء لاذع . إلتقت

نظراتهما فى تساؤل . إنطلقت ضحكاتهما رغما عنهما . أغـرق تسـاؤله فى « ابتسامات السلام » بينما نكست هى رأسها ثانية ، تبحث عن حلقات مفقودة تراصد ذهنها .

إصطدمت نظراتها بالدوائر وهى ما تـزال تتفرع .. وتتفرع .. والعيـون المثيرة الغموض ، الكثيفة الالغاز تتلوى وسط العشب الاخضر المبتل . تكتسح البلاط . تغزو المكان فى حرب صامتة لا ترقب هدنة .

لسع وجهها بنظرة مغتاظة وهو حائر بين البقاء والفرار . أسـرع الخادم الباسم الثغر أكثر مما ينبغى .. المتراخى الحركات أكثر ممـا يجب . ليلتقط القطع المنكسرة .

زاغت عيناها لحظة تتبعان الهامة المنحنية . فكرت أن تأخـذ السكيـن .. ترشقها فى عنقه النحيفة كحلزون يشكو من تشنج عصبى ، ترديه قتيلا قبل أن يحرمها من إيجاد نفسها .. ذاتها الضائعة وسط شعاب الدوائر الغـريبة الاسرار .. والعيون الغامضة الفتنة .. بأى حق يتدخل هذا الأبله فى حياتها ؟ كيـف ؟

فى سلة المهملات تكومت القطع المكسورة مع الخرقة المتسخة التى دس فيها العيون المتدحرجة على الارض ليودعها مضجعها الاخير .. يدير لها الظهـر . تجرى خلفه . تمسكه من قميصه الاحمر القانى كجرح متجمد الدم فى صدر حيوان على وشك التعفن .

ـ ألن تأخذنى معها ؟ ألن تتسع سلة المهملات لنا جميعـا .؟ أليس للكـل مكان فى ..؟

تزداد ابتسامته الكسيحة اتساعا وهو يرقبها بخوف مفاجىء :

ـ هل من خدمة سيدتى .. آسف إن ..

ينسحب من أمامها مهرولا . تعود النظرات تتسكع حولها باحثة عن حقيقة أمر غاب عنها . تلهى الجميع لحظة بالنظر اليها . ركلتهم بابتسـامة متحـدية . عادت تجلس فوق الكرسى مخلوعة الاعصاب ، تجلد الفهد الحبيس ، الراكن قبالتها ، بعجرفة غجرية ثائرة .. تنتشى بذعره ..

هربت فجأة من الرؤى الفتاكة . ألجمت نظراتها . عـادت تحلـم بأشيـاء مرعبة . وأمانى مدمرة تبتز خيالها ، تبيد الكون حولها .

ـ متعبة أنت .. امرأة متعبة فى حاجة الى كثير من الترويض ..

عيناه حائرتان بين الرغبة والتخاذل .. انما صوته كان متذمرا . حتما هو يقسم فى سره أن لا يعيد حماقة رؤياها ثانية .

....

ـ ألا تأكلين ؟ للمرة السادسة .. ألا تأكلين .. أم أنت تفضلين الحساء ليحملك الى أميرك الجسور.. لا تحلمى كثيرا . ربما أصابه داء التخاذل كالجميع وهو يتأهب لوثبة منحوسة العواقب ..

رنة فيها تملق ونفاق . وفيها ملل ونفاذ صبر . لكن هل تأكل نفسها بنفسها.هل تقول له : إنها أصبحت مثله مسالمة لا تحب الحرب ؟ وأكل السمكة ما هو غير نوع من الحرب تشنها على ...

ـ لا بد أن أعيدها حيث مستقرها وسط الغلائل القاتمة . لقد اغتيلت مثلى . افتك مصيرها منها هى الاخرى . اقتيدت الى الموت عنوة لتشبع نهم أناس لا يشبعون . ولن يشبعوا .. ما دام قد خلق . الانسان ليظل يلهث خلف ما يفترسه . تسيره بطنه . وتتحكم فيه الاهواء السفلية . الدنيا أمامه تبتدىء من الاسفل . وتنتهى من الاسفل ، لذا سوف يبقى أبدا فى أسفل السلم لا يرتقى الى فوق أبدا . إن حاول الارتقاء صدفة كسرت أعضاؤه .

السمكة ترمقها فى استسلام بائس . تقص عليها حكاية ظالمة وأليمة ، عن بشر لا يعرفون الرحمة قد استعبدهم الجشع .. وأسرهم النهم .

« كنت أنعم بالحياة فى جوف الغلائل المبهمة الرؤى . أحلم باكتشاف مدينة ضبابية مجهولة ومثيرة .. لكن يد البشر اغتالتنى . اختطفتنى من مثواى لتهبنى لبطون أناس لا يشبعون .

أجيال وأجيال خلت وهم ينهبون كنوز البحر ولا أحد منهم شبع . هم لا يعرفون أن لعنة « نبتون » تطاردهم وقد حكم عليهم باللا شبع الأزلى .. لو شبع المرء لحظة لاندثرت الخليقة .. »

....

السمكة الشهيدة مسجاة فى الصحن .. وأزيز الموج ثائرا يصرخ مهددا أيد خبيثة سعت للفتك بها ، والغوص بدنياها .

القاعة تغرق فى هدير المياه الفيروزية التى تشوبها حلكة مثيرة ، وحزينة . وكانت رغبة جامحة تزفر فى صدرها تحثها الى الرجوع الى مكـان مـا .. الى البحر حيث تدفن هى والسمكة بين أحضان الامواج الحانية .

« سأعود .. لا بد أن أعود ، أبحث من جديد عن أمانى قزحية ضاعت من قبل أن أجدها . عشت أحلم بها من قبل أن أعرفها وما كان يجوز لى أن أحلم بها أو أتمناها . إنما .. إنما ..

لا بد أن أجد شيئا وإلا تحتم على الموت فى مستنقع اللا شىء . مـا الحيـاة سوى قبور تترنح فوق الماء تنتظر متى يبتلعها التيار .. متى يكون لها الخلاص من قبضة القدر .. لذا يجب أن أعود ، أبحث عن قبرى فوق الماء .. عن مكانى فى أليم اللازوردى .. أهرب من أيامى المحترقة على جمر الدوائر المتشـابكة الغموض .. أهرب من مصيرى الأعرج المتعفن فى قمقم الضجر ..

....

لم تستطع أكل السمكة القتيلة . لم تستطع السمكـة أن تأكلهـا . لكـن الثوانى أخذت تلتهمها بشراهة سمجة .

عيناها تتشعلقان فى السقف . ترتكـزان على الثريـا المتـرامية الأغصـان كشجرة هرمة . فكرت أن تأخذ الشوكة . تلقى بها نحو غصن منها . تتسلى بكسره . تنبش به سحب الدوائر الحالكة . تهشم بـه رأس الحيـوان القـابع أمامها كفهد مقيد اقتيد غدرا الى قفص . تنتقم منه . ومن بشر لا تعرفهم ولا تريدهم . ومن أناس تريدهم ولا تود أن تريدهم ... تقتل الجميـع بالهـراوة الزجاجية . تبقى وحيدة مع السمكة الشهيدة ، تقص عليها هى الاخرى حكاية العصفورة الحزينة التى تحلم ببناء عشها بين الشهب ، لكن القـدر كان لهـا بالمرصـاد .

تروى لها قصتها مع البحر .. مع الضجر .. مع الليل .. مع الوحوش التى اعترضت طريقها ، وشلت زحفها نحو آفاق أثيرية عاشت على بريقها سنوات لا تحصى ..

....

فى ظلام الدجى كان البحر أسطورة عجيبة تحمل فى خفاياها ألف حكـاية صراع لغرباء تعذبوا .. وتشردوا .. وتمزقوا قبل أن يبتلعهم عباب الغـربة والضيـاع .

البحر ينتحب تحت أقدامي .. والأمواج تنـدب عمرهـا الضـائع دون أن يصغى « نبتون » إله البحر الى شكواها ، ما دام قد صم أذنيـه عنهـا وعنى ، تظل الأمواج تنتحب . وجزيـرة العسجـد فى العيـون الـرهيبة الغمـوض ، تناديني .. والأنجم تتنهد .. تتمطى فى ديجور سمائها تلاحق القمر النافر . تركض لتلثم صدر الأفق ، وأنا أتخبط فى شبكة نكسـاتى .. أمتص نهـود الغربة ، فى بلد كل ما فيه ضيم ومعاناة .

كان السوار بمعصمي يؤلمني . يخنق حريتى . يقـول لى : إنى أسيـرة . أسيرة ماذا ؟ ومن ؟ لا أدرى ..

انتزعت السوار من معصمى لألقيه فى البحر .. ربما أول قيد .. أو آخـر قيـد ؟

رقصت المياه الجذلى للهبة . ألقيت بالخاتم الذى يدمى إصبعى وحمية العطاء تتملكنى . ألقيت .. ألقيت .. التهم البحر ما قدمته بغبطة صامتة . ظننت أنى تخلصت من كل القيود ، لكننى لم أكن أدرى أنى سأرجـع مكبلـة . بأفظـع القيـود .

كانت شفاه البحر تبتسم . تبتسم . لترسم فى سكون الليل دوائر حزينة. مبهمة الحيرة يقبع مصيرى تحت أنقاضها لاهث الأنفاس حائر العزيمة .

ظننت أن الدوائر المتراقصة فى نشوة ساحقة تناديني كى تحملنى اليه .. الى جزيرتى العسجدية التى أحلم باجتياز ثراها المسحور . ارتميت فى خضم مملكـة « نبتـون » وهو بعيد . وأنا وحيدة .. عصفورة حزينة ، مكسـورة الجناح .. وذاتى ممزقة بين انتكاسات القدر . وتشنجات الأوضاع المقلوبة . ضائعة .. حزينة حتى الجنون رافضة .. ثائرة حتى الموت ..

« أيتها الشهيدة مثلى كان الموت يناديك .. »

ـ « بل سمفونية المصير تحثنى على التقدم .. على البحث عن العش الموعود.. لكن البحر لفظنى .. غريبة .. يائسة جئته ولفظنى .. لذا أنا ألعنه وأتمناه . أمقته وأحبه . أخشاه وأسخر منه . ذاك الجبار العنيد .. »

« البحر لا يلفظ أحدا .. إنما البشر .. »

من يومها وأنا أحلم به .. البحر !! أجمل ما فى الوجود . فى امتداده .. امتداد أحلامى . فى سحيق أغواره .. عمق أحزانى .. وفى تلاطم أمواجه ثورة آمالى المعربدة النازحة دوما نحو وجهة ما .

إنه يهب الحياة . كما يهب الموت .. ساحر كالحب .. جبار كالرغبة .. غادر كالزمن .. نقى كالصباح الوليد .. دنس كرجل ماكر .. فيه ما فى الدنيا من جمال . وعهر ومتناقضات ..

ـ « أمتع ما فى الدنيا متناقضاتها . لا محبة بغير حقد . لا بقاء بغير موت . لا خير بدون شر .. لا نظافة بدون قذارة . لا سعادة من غير أسى .. »

وعدت ...

عدت وأنا أغرق أكثر فأكثر فى عسجد الدوائر المراوغة .. والقيود تزداد تعسفا تزج بى قصرا فى قمقم الضجر .. والعالم كله عيون فتاكة السحر تلاحقنى .. تلغم طريقى بغموضها .. ودوائر متشعبة الألغاز كافرة الحيرة تحاصرنى . تصلبنى على مشانق الرعب والانهيار .

عدت وأنا أعرف أنى سأظل دوما أنا ويأسى أصفع التافهين بكبريائى .. وكرامتى تتوج رأسى باكليل العزة والترفع .. لكننى أسيرة . أسيرة ومتحطمة ..

....

ـ « الشذوذ يربض تحت أقدام المرأة المتطورة أكثر من اللائق .. المتحررة زيادة عن المعقول » ...

بصوت حاقد النبرات رجمها بتلك الكلمات المغتاظة الناقمة . رجمته ببسمة ساطعة التحدى . بعجرفة غجرية ثائرة ألقت بعقب السجارة المشتعلة بين أصابعها ، فى مضيق شفتيه المنفرجتين عن تكشيرة ميتة المعنى .

وقفت تتلذذ بمشهد الحريق ، وزوابع الغيظ تكاد تقتلع جذوره ، انتفض للسع النار وهى تحرق جلده . انتابته لحظة رغبة فى التدمير ، انتصب مرتعدا . أراد أن .. لكنه عاد يجلس مصعوقا ، مستسلما لا يروم حراكا ، يغوص فى بئر هوانه كفهد حبيس ، مقلوع المخالب .. مخلوع الأنياب .

ألقت لفتة أخيرة على السمكة الشهيدة . ابتسمت فى تودد .. ثم واصلت طريقها دون التفات بغرور ملك مخلوع ما زال منتصبا على عرشه رغم أنف الرعية الرافضة المتمردة .

....

رفعت رأسها الى فوق وبصرها يتلوى يمينا وشمالا . لم تلمح شيئا .

السماء لم تعد فى مكانها .. ربما صودرت ؟. ربما اختلسها المحتكرون لتباع الى هواة الطريف والجديد ؟. بدل رقعة السماء المشرقة التى تعرفهـا وبقيت الساعات الطوال تنظر اليها حالمة بعش صغير تبنيه فوق جبـال القمـر .. بدل السماء كانت هناك مقلة زرقاء فظيعة الغموض تشع ببريق فتاك ، تحدوها دوائر متشابكة يجلس « عزرائيل » القرفصاء فى احدى تشعباتها ، متسائلا فى تخاذل مر عن النهاية .. عن مصير الخليقة المكفهر الرؤى ..

ركلت تساؤله ساخرة ، كانت نظـراته ترشـح بخنـوع مفـزع ، تنـذر باستسلامه وعجزه على مجابهة تفاهات الخليقة ، وتذبذب زحفها الدائم ..

عاجز .. هو الآخر .. عاجز !!!

إلتقفها الليل . عانقته . سار معها يحتضن خيبتها ، يجرجر خلفه أحقابـا من المعاناة والوحشة .. وكان النهار الميت ما زال يلحس آثار الخريف الرافـع راياته فوق ربوع الطبيعة الغاضبة .

الأحزان تجذبها . تتكىء على كتفيهـا ، تبتسم حـانية لـملاك الحـزن وهى تكتشف أنه لم يكن لها غير الحزن حبيبا ورفيقا ..

تمنت لحظة أن يبتلع الظلام تلك الدوائر المتشابكـة التى تشحـن الأفـق غيوما .. تحجب عنها الرؤية الحقيقية للحياة .

لكنها تعرف أن حياتها انتهت . ابتلعتها جزيرة العسجد ، وغربة العيون السحيقة الشجن ، تلك العيون التى لم تـدرك بعـد حقيقتهـا ، ولا عـرفت وجهتهـا !!

إنقضت حياتها ولم تكن غير عدو مجنون خلف غد موبوء فى زمـن تسيره المطامع الدنيئة ، وتتقاذفه المساعى الحسيسة .. وسط قوم اعتنقوا السفـالة منهجا ، والانحراف طريقا يسيرون فيه بضمائر متحجـرة ، مغلفـة بخـرقة التفسخ السوداء ، ليواصلوا مسيرة التفكك ، يلفح وجوههم هجير التلـوث السياسى .. ويسلخ أجسامهم مشرط التمزق الاقتصادى .. والنفاق العربى.

....

زفرت أمطار الخريف تلفح وجهها ، ووحشة المساء تتمطى بعينيها ، ترسم زخارف لمرافىء سرابية اكتسحتها ملالة الأنواء . اختلطت مع عبرة متمردة . عرفت أخيرا وجهتها . لقد أزاحت الأمطار ، الأتـربة التى حجبت النـور عن ناظريها دهرا ...

عادت الى حيث يجب أن تعود .. الى الذى لفظها مرة لكنه ما فتىء ينتظرها.. يناديها .. يحاصر أفكارها .. الى البحر عادت ، تبحث عن مأوى .. ترصد قبرا تحت الماء .. تنتزع مكانا عنوة تحت الماء . تقترب . يواجهها البحر لغزا رهيبا عجزت عن فك طلاسمه . تتقدم وجلة . والعالم يغدو دوامة مرعبة تتخبط وسط العباب الهائج . تشهق المياه الجذلى تدفعها بحنو قرصان تائب عذبه الندم . تحث الخطو نحو الاعماق المتفتحة لها . قدماها تغوصان فى الرمال الرخوة ، تحفران لها المضجع الاخير .. النهاية هنا . رابضة فى حفرة ما . اما الوجود غير حفرة ، موحلة قذرة يتصارع فيها الانسان الذى خلق ليبقى دوما وأبدا يرتع وسط الحفر ، إذ ما هو غير جرذ حقير حكم عليه أن يقضى العمر متسكعا بين الحفر النجسة .

رمت به فى يوم أغبر حفرة آدمية . بطن أمه .. من يومها بدأت مسيرة التدحرج بين الحفر .!!

يتعذب .. يتشرد .. يفرح .. يخنقه الجوع .. تبدده التخمة .. يجلده الفقر .. يسحقه الثراء .. ثم .. لا بد أن يرسى به الركب فى آخر المطاف عند شفا الهوة الأخيرة .. حفرة منسية فى تربة مقبرة ما .. حيث تنتهى به مسيرة الحفر .. مسيرة التعفن والجنون ..

يئن الموج بصوت حزين كآهة عذراء تذبح فى معبد مقفر .. تقدم قربانا لاله ظالم ، بين تراتيل كهنة ملحدين ، وغضب سماء ناقمة ...

يختفى القمر باكيا . تعوى الرياح ترثى أحلاما مرتقة وقلبا يتيما .. ترقص حولها تزفها للبحر .. تهبها « لنبتون » بين زغردة الدوائر الثكلى .. وضجر العيون المتعبة الغموض .

تغوص فى اليم هاربة من الومضات الساخرة ، والليل يتفتت .. ينحل شيئا .. فشيئا .. يذوب كقطعة سكر فى فم الخريف الجائع . تعود معزوفة الموت تراقص الأمواج الحائرة ... حتما ستتصل اليه .. ستفتكه وتفتك معه مصيرها الغارق فى لجج الغلائل القاتمة . لقد أراد لها أن تعيش أبد الدهر هائمة فى متاهات جزيرة العسجد تبحث عن نفسها فى غربة العيون المثيرة ولا تجدها . .تطارد الحياة ، ولا تلتحق بها . تحلم به ولا تسعد بالبقاء قربه أبدا ..

ربما التقيا فى شرنقة الدوائر العجيبة ، صدفة ، ذات ليلة .؟ أو ربما التهمتهما كآبة ليالى الضجر .. ربما ..؟ ربما ..؟ .

حياة بن الشيخ

الصحة العائلية

بقلم : المازري شقير

اسمحوا (*) لى بادىء ذى بدء بأن أعبر لكم عن شكرى لاتاحتكم لى فرصة المساهمة فى أعمالكم اذ مكنتمونى من التقدم اليكم بهذا العرض عن الصحة العائلية وعن تصورنا لها فى تونس وما سعينا الى انجازه فى اطار اثبات هذه النظرة المتعلقة بصحة الاسرة والرقى بها - وانى سأتناول هذه المسائل لا باعتبارى طبيبا أو مختصا بل بصفتى مواطنا آمن منذ سنوات عديدة بجملة من المبادىء منها أن غاية كل عمل انما هى انزال الانسان منزلته الحقيقية واثراء كافة ابعاده الانسانية ، وبصفتى مسؤولا ناله شرف ادارة برنامج يرمى من خلال التنظيم العائلى الى تحرير الانسان والاسرة والنهوض بهما - ولقد كان هذا العمل مثيرا للحماس ، باعثا على الاعتزاز ، متمما لاكتمال النفس ، مغذيا للامل ودافعا الى الالتزام - وان كل من ساهم فى هذا العمل النضالى بحق ، ليشعر أنه قد أكسب ذاته بعدا جديدا فنماها وأفسح آفاقها اذ تفاعل مع البشر والواقع تفاعلا حركيا حيا .

وانى اذ أعرض عليكم جملة ما استلهمناه من هذه التجربة من منجزات وعبر لأطمح بآمالى الى أن يكون الاخوان المشاركون فى هذه الندوة على بينة مما قامت به تونس فى مجال الصحة العائلية وانه ليسعدنا أن نكون قد ساهمنا فى استجلاء بعض أوجه هذا الموضوع ، وذلك بتوضيح نظرتنا لذواتنا والادلاء برأينا حول المشاكل التى تواجه مجتمعاتنا العربية فى سعيها نحو التنمية الاقتصادية الشاملة والتقدم الاجتماعى .

(*) نص المحاضرة التى ألقاها **السيد المازرى شقير** الرئيس المدير العام للديوان القومى للتنظيم العائلى والعمران البشرى فى المشاركين فى المؤتمر الطبى العربى الثامن عشر المنعقد بقصر المؤتمرات ، تونس - الثلاثاء 23 أكتوبر 1979 .

مفهوم الصحة العائلية :

ان مفهوم الصحة العائلية هو مفهوم حديث نسبيا اذ انه نحت على ضوء التطور العظيم الحاصل في تطور المسائل المتصلة بالصحة ووظيفتها الاجتماعية وكذلك نتيجة للتحولات الهامة التي شهدتها المضامين الاساسية للعلوم الانسانية وخاصة منها علم النفس والتربية والاجتماع . ولقد كان الاطار الذى نشأ فيه هذا المفهوم فى مرحلته الاولى ونما ، هو ما اصطلح على تسميته برعاية الام والطفل وتتمثل فى مجموعة من الوسائل والاجراءات ، الغاية منها السعى الى صيانة صحة الام والطفل . هذا تصور يقتصر على العلاقة الثنائية بين الام ووليدها ، ولكن هذا التصور تطور فشمل علاقة الام بمجموع أطفالها اعتقادا أن الحاجيات الاقتصادية والنفسانية والعاطفية للاطفال تتغير حسب عدد الاطفال المنتمين الى نفس العائلة وذلك من حيث الكم والكيف .

هذه هى أول معالم نشأة مفهوم الصحة العائلية الا انه اتضح ان هذا المفهوم انما هو مفهوم منقوص اذ انه يقصر نظره على علاقة ثنائية بين الام والطفل والحال ان الصحة العائلية اطار لتأثيرات عوامل أخرى . فمن الواضح أن المرأة الحامل تعيش وسط خلية اجتماعية معينة وأن حياتها تتأثر بعلاقاتها مع زوجها وأن ذلك يؤثر بدوره على الطفل الذى لا يعيش فى ثنائية مغلقة مع أمه فقط بل هو ينمو وسط شبكة من العلاقات العائلية تربطه بأمه وأبيه وفصيلته التى تؤويه ومن ثم كان لا بد من تطوير مفهوم الصحة العائلية الى ابعاد أرحب وأكثر حركية .

ويمكن لنا أن نقول فى هذا الصدد : إنه فى حين تمثل رعاية الام والطفل مجموعة وسائل واجراءات لا يكون فيها دور الفرد بارزا بصفة جلية ــ ولعل كلمة رعاية ذاتها تدل على هذا الدور السلبى نوعا ما ــ فا نمفهوم الصحة العائلية يحتوى على فكرة مسؤولية الفرد والاسرة فى تقرير مصيرهما الصحى والاخذ بما يتوفر لهما من اسباب ووسائل وان هذا التصور ليسمو بالانسان الى طور التفكير والادراك والاختيار ويضفى بعدا من الحرية المسؤولة على مفهوم الصحة العائلية وعلى دور العائلة وسط المجتمع الذى تنتمى اليه .

هذه هى فى عجالة أهم مراحل نشأة مفهوم الصحة العائلية ولنا أن نحاول الان أن نعرف الصحة العائلية .

ان تحديد كلمة الصحة تطور هو الاخر تطورا كبيرا خلال السنوات الاخيرة فلقد كانت الصحة تعنى فى الماضى حالة انعدام الامراض او العلل ، واكتست

بعد ذلك عدة معان ايجابية وكثرت التحديدات والتعريفات الا انه في امكاننا أن نقف عند التعريف الذي أتى به العالم الامريكي المختص في انبيولوجيا ديبوس (R. DUBOS) « الذي يحدد الصحة باعتبارها » قدرة الفرد أو المجموعة الاجتماعية على التطور دوما ، لا لمجرد القيام بوظيفته على أحسن ما يرام في الحاضر بل وكذلك للاستعداد للمستقبل – ان هذا التحديد للصحة لا يحصرها في الحاضر في اطار لا يقبل التغيير ، ثم هو لا يتأثر بالواقع الخارجي تأثرا سلبيا دون التحكم فيه . بل يتعدى ذلك الى رؤية مستقبلية فعالة يساهم الفرد في اعدادها وخلقها .

أما مفهوم العائلة فلقد وقع تصوره من رؤية مختلفة تعبر عن مقاييس وقيم تختلف حسب اختلاف الثقافات والتقاليد الاجتماعية ، وبحكم ذلك اوكلت للعائلة وظائف متعددة منها ما هو بيولوجي من حيث انها تسهر على تواصل النسل ، وما هو نفساني اذ هي توفر الطمأنينة للفرد وما هو ثقافي واجتماعي باعتبار أن العائلة تغرس في الطفل مجموعة من القيم والمبادىء وما هو اقتصادي من حيث توزيع الموارد والتضامن بين افراد الاسرة الواحدة . وأخيرا ما هو تربوي اذ العائلة بالنسبة للطفل هي مدرسته الاولى وهي اذن مصدر معلوماته ومواقفه .

ان كل هذه الوظائف في واقع امرها متكاملة ولا يمكن تجزئتها أو تقسيمها ذلك أن الاسرة اطار حياة والحياة منطلق وأفق وهي ذات ملامح متعددة وابعاد متنوعة .

ان الاسرة كائن حي يتطور وينمو ويتعرض للافات والامراض لا الجسمانية منها فقط بل وكذلك النفسانية والعاطفية وفي هذا المجال فان صحة العائلة ليست مجرد مجموعة الحالات الصحية لمختلف افرادها ، بل هي تتجاوز ذلك فهي تمثل من ناحية جملة العلاقات السائدة بين أفرادها على مختلف مستويات حياتهم ومن ناحية أخرى المحيط البيولوجي والاجتماعي الذي تعيش فيه وتتفاعل معه .

ان لنوعية العلاقات التي تربط بين افراد العائلة الواحدة أهمية بالغة فلقد اثبتت الدراسات العلمية انشخصيةالطفل مثلا تتأثر تأثرا بالغا بعلاقاته بأبويه منذ السنوات الاولى من حياته فاذا انعدمت العلاقة بين الطفل وامه او انقطعت ولم يقع تعويضها بعلاقة مع شخص آخر ، يمكنه تعويض الام ، فان النمو العاطفي للطفل قد يتأثر لذلك تأثرا نهائيا فيصبح غير قادر على ربط علاقات

عادية مع غيره ، كما انه لوحظ فى بعض الحالات القصوى انخفاض فى نسق النمو الذهنى للطفل لنفس الاسباب والحال ان مؤهلاته الذهنية لم يطرأ عليها اى تغيير ــ ومن ناحية أخرى فان نوعية العلاقات التى تربط بين الطفل وامه ترسم فيه الاطار الذى يعيش فيه وترافقه هذه الصورة فيما تبقى له من حياة وتؤثر فى مستقبله ككائن اجتماعى ــ ان اولى وظائف هذه العلاقات ان يشعر بالطمأنينة وفى ذلك تكمن اغلب مكونات شخصيته النامية فى ما يجده لدى والديه من رعاية وأمن . أو على عكس ذلك من تخوف وحيرة ، له تأثير على نموه العاطفى والذهنى وعلى قدرته فى النجاح والاندماج فى المجتمع ــ ويقول برستون فى هذا المجال : « ان امن الطفل يتألف من ثلاثة عناصر : الاول هو الحب الذى تغمره به امه فأبوه والثانى هو شعوره بانه مع حبه مرغوب فيه ومقبول فى عائلته والثالث الاستقرار العائلى . » هذه هى الشروط الثلاثـة لنشأة سليمة ونمو طبيعى واعداد محكم للقيام بالوظيفة الاجتماعية وفى هذا المستوى تتراءى لنا فكرة التنظيم العائلى وهى أحد المحاور الهامـة للصـحـة العائلية .

ان العلاقة بين التنظيم العائلى والصحة العائلية لم تعد فى حاجة الى بيان . فلقد أثبتت التجارب العلمية ان لتعدد الولادات تأثيرات سلبية على صحة الام والطفل ومما يذكر أن نسبة الوفيات لدى الامهـات والاطفـال وكذلك نسبة امراض النقص فى النمو البدنى وانخفاض المعدل الذهنى لدى الاطفال مرتبطة ارتباطا مباشرا بتعدد الولادات والمرتبة التى يحتلها الطفل فى هذه السلسلة .

وأما على المستوى النفسانى والعاطفى فان الدراسات والممارسة اليومية تدل دلالة واضحة على أن العائلات الكثيرة العدد لا تقدر على توفير مناخ عـاطفـى يتلاءم مع نمو الطفل نموا متناسقا ، فالام التى اضنتها الولادات والاطـفـال والمشاغل العائلية المتعددة عاجزة عن القيام بوظائفها الاساسية التى يتـوقف عليها مصير أطفالها وحظوظهم فى الحياة السعيدة المتوازنـة . ان الزيـادة المفرطة فى عدد الاطفال تحدث انخراما فى الهيكل العائلى وفى مستوى علاقات أفراده بعضهم ببعض وتأتى على أساس الاطار الذى تحدثنا عنه آنفـا والذى بدونه لا يمكن تصور نمو طبيعى للطفل .

ان التنظيم العائلى فى مفهومه الشامل هذا ، عنصر أساسى للصحة العائلية وهو اثبات لنوعية العائلة وبالتالى لنوعية الحياة .

ان الصحة العائلية حركية دائمة وهى فى تفاعل حى مع الواقع المحـيـط ولذلك أضحى من المتأكد أن تتأثر بما يدور حولها من احـداث وتطـورات .

فعالمنا اليوم عالم متقلب ، متغير التوازن ، دائب النمو ولقد خلق هذا الواقع الجديد مشاكل وتصورات جديدة يجب ان تؤخذ بعين الاعتبار اذا اردنا لبرامجنا المتعلقة بالصحة العائلية أن تكون مرتبطة بالحياة متفاعلة معها وذات جدوى فلا يمكن ان نتصور هذا الموضوع بدون دراسة تأثيرات المحيط والوراثة ـ وقد يكون من المفيد في هذا الصدد دعم البحوث في هذا الميدان ـ وكذلك التحولات الاجتماعية الكبرى كتزايد الحقوق وتحرر المرأة وبروز انماط ثقافية واجتماعية جديدة وغير مالوفة ـ كل هذه الظواهر لا يمكن ان تبقى بمعزل عن بحثنا الدائب للنهضة بالصحة العائلية .

برنامج للصحة العائلية :

انطلاقا مما سبق يمكن لنا ان نعرف الصحة العائلية بانها عمل من اجل تمكين الفرد والاسرة من القيام بدورهما في التصرف في الحاضر والاعداد للمستقبل ـ وتبعا لذلك وجب ان تكون برامج الصحة العائلية آخذة بكل ابعاد الموضوع النفسانية والبدنية والذهنية ، الفردية منها والجماعية . ان رعاية الطفل وهي اول ركائز الصحة العائلية لا تبدأ يوم ولادته بل يجب أن تسبقها وان تبدأ منذ زواج الابوين وذلك باجراء الفحوص الضرورية للخطيبين حتى يقع تجنب ما قد يحدث من عدم تلاؤم بينهما ، ثم عند الحمل باجراء فحوص دورية على المرأة والجنين والعناية بالوليد منذ قدومه الى عالم الاحياء ـ كما انه من الضروري الاعتناء بالام من حيث توعيتها بقواعد الوقاية وحفظ الصحة والتربية حتى تكون على بينة من واجباتها . ان هذه الرعاية الصحية لا تقتصر على الام والطفل بل تشمل كافة افراد العائلة سعيا الى ضمان شروط الوئام والاستقرار وسط الاسرة وهي شروط ضرورية لنمو الطفل ونشاته . كذلك ينبغي ان يشمل برنامج الصحة العائلية الاوجه الاخرى لحياة الاسرة النفسانية منها والاجتماعية ومن ثم تحتم ان يكون هذا البرنامج متكاملا تتفاعل في اطاره عدة عوامل واختصاصات ، فالبرنامج ينبغي له ألا يقتصر على جانب دون آخر . فاذا وفرنا الخدمات الفنية مثلا دون القيام بالعمل التربوي فان جهدنا يكون منقوصا واذا لم نعتبر غير الجانب الطبي البحت من الصحة العائلية فاننا لن نصل الى تلك النظرة الشاملة المنشودة .

ان الصحة العائلية عمل جماعي ونقطة التقاء اختصاصات واطارات مختلفة التكوين والوجهة ، لكنها متحدة الغاية وهي النهوض بالفرد والاسرة . فبقدر ما نؤكد على ضرورة مواصلة البحث في الوسائل الطبية والفنية بقدر ما يجب

ان يكون سعينا حثيثا من اجل ارساء قواعد بيداغوجية جديدة ولا يفوتنا أن نلح في هذا المضمار على ضرورة تضافر كل الجهود وكذلك على ما يجب ان نقوم به من اصلاح مسالك التفكير والعمل والعلاقة بين مختلف الاختصاصات حتى نجد من وطأة الفوارق المصطنعة غالبا بين العلوم الطبية مثلا والعلوم الانسانية فلم يعد في الامكان أن نتجاهل ما قدمته علوم الاجتماع والنفس والتربية من مكاسب ساهمت في تطوير المعرفة واستجلاء ما كان غامضا أو مجهولا في نوازع الذات البشرية وعلى هذا الاساس فانه سيكون من المفيد والمجدي ان نعمل على ادماج هذه المواد في تكوين الاطباء ، وهذا ما سعينا اليه في تونس في مستوى برامج كليات الطب ، وفي تدريب ذوي الاختصاصات المختلفة . على العمل معا في اطار برامج متكاملة وذلك باذكاء جذوة الحماس وتحسيس المعنيين بالامر وتكوينهم .

ان برنامج الصحة العائلية برنامج متكامل فيه الطب والتنظيم العائلي والتغذية والتربية وعلم النفس وعلم الاجتماع ولعل هذا المجال من أرحب المجالات لتفاعل هذه المواد وتكاملها والعمل الجماعي من اجل مواجهة المشاكل واستنباط الحلول لها .

هذا فيما يخص مجال اعداد البرنامج ، وأما في مجال التنفيذ فان التصور واحد اذ العمل متكامل ، مندمج فالبرنامج يشمل كل ابعاد الصحة العائلية بمحاورها المختلفة ـ فلا يمكن ان نحصر العمل في جانب دون آخر بل يجب أن يكون عملنا مستوعبا لكل عوامل الصحة العائلية رابطا اياها بالمؤثرات الثقافية والاقتصادية والاجتماعية وواضعا غاياتها في اطار التنمية الشاملة للرفع من مستوى الانسان .

وفي المستوى العملي فان الفرد يصبح جزءا من مجموعة وهي الاسرة ومن خلالها ينظر اليه من طرف المسؤولين عن الصحة العائلية ، وهكذا يمكن استغلال هذا الوضع لايصال ما نريده من معلومات أو القيام بعمل تربوي هدفه جعل الفرد يشعر بمسؤولياته تجاه مشاكله وخاصة منها ما يتصل بصحته وصحة المجموعة التي ينتمي اليها . وبفضل ذلك تصبح الصحة العائلية عاملا من عوامل النهضة بالانسان وترقيته ووسيلة لبناء مجتمع منظم في سلوكه واعماله ووجوده .

ان الصحة العائلية كما حددناها آنفا ، عمل متواصل ودائب فهى لا تكتسى صبغة « الحملة » التى تنتهى بنهاية مدتها بل هى عمل طويل النفس يندمج فى جملة من الانشطة الدائمة ــ اذ هى تربية وسلوك ونمط حياتى .

التجربة التونسية فى مجال الصحة العائلية :

بعد هذا العرض الموجز لمفهومنا للصحة العائلية استسمحكم فى أن أطلعكم على الخطوط الكبرى التى انبنت عليها تجربتنا فى تونس فى مجال الصحة العائلية ، وأود أن أقدم لذلك بعض المعطيات عما قمنا به فى مجال التنظيم العائلى وهو احدى ركائز سياستنا للصحة العائلية . والتنظيم العائلى يرمى اساسا الى النهوض بالانسان وذلك بتبصيره بواجباته فى مجال الانجاب وتوعيته بما توفره له الدولة من حقوق ووسائل لاختيار عدد ابنائه وممارسة مسؤولياته العائلية وسياستنا فى هذا المجال ، كما وضحها المسؤولون وفى مقدمتهم الرئيس الحبيب بورقيبة انسانية الغاية والمنطلق فهى تبشير بانسان جديد وهى كذلك عمل طويل النفس يهدف الى جعل الفرد يسترجع كرامته ويقرر مصيره عن دراية وبكل حرية .

ان التنظيم العائلى فى نظرنا ليس مجرد مجموعة من وسائل تحديد النسل بل هو نظرة شاملة لشؤون الاسرة والمجتمع وانطلاقا من هذا المفهوم كانت خطة العمل التى رسمنا أهدافها واحكمنا طرق انجازها ترتكز على استراتيجية واضحة المعالم تهدف اولا وبالذات الى اعلام المواطن وتربيته ، فلقد قمنا بنشاط واسع المدى فى مجال الاعلام بمشاركة أجهزة الاتصال الجماهيرى من صحافة مكتوبة واذاعة وتلفزة واعددنا الوثائق والافلام ومعارض مدعمة بالصور الثابتة وركزنا هياكل جهوية دائبة الحركة تنشطها اطارات هى على اتصال مستمر بالمواطن حيثما كان ، فى المعمل او المنزل أو الحقل ، وأولينا الشباب عناية خاصة ، فادمجنا التربية فى المجال السكانى فى برامج التعليم الثانوى، اعتقادا منا ان فى ذلك مساهمة فى خلق شباب سليم مندمج فى صلب المجتمع يضطلع برسالته على أحسن الوجوه ، وقد تحرر من كل ما يعطل ذاته أو يمزق شخصيته . واذا كان شغلنا الشاغل تدعيم الانشطة التربوية وتعميمها فلقد اولينا اهتماما بالغا بمسألة الخدمات كما وكيفا .

وكانت الاجراءات التى قمنا بها تتمثل فى بعث مراكز جديدة لرعاية الأم والطفل وتنظيم المراكز القديمة وتجهيزها وتحسين مرافق الاستقبال واتقان التقنيات المستعملة هناك .

وقد وجهنا عنايتنا نحو صحة العائلة فى نطاق سياسة الطب الشامل أو المندمج ، وتتمثل هاته السياسة فى القيام بأنشطة ذات صبغة فنية وطبية ـ اجتماعية ، تشمل الميادين الوقائية والعلاجية المتصلة بوظيفة التناسل أى الحمل والولادة وما بعد الولادة وطب الاجنة والاطفال ، ولهذا الغرض تم فى مراكز الصحة الاساسية تكوين ملف لكل عائلة يسجل فيه الطبيب أثناء الفحوص أو عند الزيارات المنزلية كل الملاحظات الخاصة بصحة الاسرة وحاجيات أفرادها . وهكذا فان الفحوص تشمل فى آن واحد وبصورة مندمجة التنظيم العائلى أى المباعدة بين الولادات والحد منها ومراقبة النساء المقبلات على وسائل منع الحمل لصيانة صحتهن ومعالجة العقم وطب النساء ومتابعتهن أثناء الحمل قصد ارشادهن وفحصهن بعد الوضع . كما تشمل كذلك فحص الاطفال وتقديم ارشادات تخص تغذيتهم ومتابعة تلقيحهم وتقديم تربية صحية تشمل الوقاية والتغذية وكل ما يتعلق بسلامة الاسرة بدنيا ونفسيا . وقد مكن ادماج هاته الانشطة فى بعض الجهات من تحقيق نسبة عالية من الحماية بصفة فعالة ودائمة تهم خاصة عوامل الخطر التى قد تهدد صحة الامهات او الاطفال فى سن ما قبل الدراسة . وقد تدعمت هاته السياسة فى العديد من الجهات واذ تتجلى جدواها يوما بعد يوم فانها ستعمم فى جهات أخرى .

ان التجربة التونسية فى مجال الصحة العائلية تجربة متكاملة ، فبرامج العمل تعد من طرف مجموعة من الاطارات فى اختصاصات مختلفة نجد من بينهم الطبيب والديمغرافى وعالم الاجتماع وعالم النفس والمختص فى الايصال والمربى . ولذلك اتسمت أعمالنا بالشمول فالبرنامج يحاول ان يلم بكل ابعاد الموضوع باعتبار كافة متطلبات الاسرة وحاجياتها وكذلك مستوى تطورها الثقافى والاجتماعى والعمل التربوى يعد فى نفس الاتجاه المتكامل فهو يحتوى على معلومات وارشادات فى التربية العائلية والتغذية والوقاية والاقتصاد .

ولقد حرصنا فى المستوى العملى على احترام نفس المبادىء ونفس الطرق حيث ان الفرق التى عهد اليها بتنفيذ برامجنا ميدانيا مكونة من اطارات متنوعة الاختصاص قد سبق لها أن ساهمت فى التربصات وحلقات « الرسكلة » أى التكوين المستمر،التى ينظمها الديوان القومى للتنظيم العائلى والعمران البشرى بصفة دورية والتى تحتوى الى جانب المعلومات الفنية على مبادىء فى علم النفس والاجتماع ووسائل الايصال والتربية وذلك حتى يكون الاطار متعدد الوظائف قادرا على تنفيذ برامج الصحة العائلية واثرائها بحكم الممارسة .

هذا فضلا عما دأبنا عليه من تركيز أسس علمية للتقييم المتواصل قصد الوقوف على نقط الضعف واستجلاء آفاق المستقبل لنبقى دوما على اتصال حي بالواقع .

ولقد مكنت هذه السياسة الصحية من بلوغ عدة اهداف منها ما هو نوعي ويتصل بالتحول الحاصل فى العقليات والسلوك واقبال المواطنين على نمط جديد من الحياة ومنها ما هو مرقم ويدل دلالة واضحة على بروز سلوك ديمغرافي جديد لدى المواطن التونسي ويبين ان حالته الصحية قد تحسنت وان نسبة الوفيات قد انخفضت بصفة محسوسة . كما انخفضت نسبة الخصوبة .

هذه بعض ما سعينا وما زلنا نسعى الى تحقيقه في تونس من اجل خلق اجيال سليمة ، متوازنة مندمجة فى صلب المجتمع قادرة على تحمل مسؤولياتها والاضطلاع برسالتها فى هذا الوجود اضطلاعا يمكنها من ان تبنى مجتمعا راسخ الاركان قوى البنيان .

المازري شقير

كلمات منثورة ...

بقلم : البشير المجدوب

لا طريق الى الانسان غير الحوار .. لغة الند للند .. إيمانا بالانسان واثباتا لحريته وكرامته .. عطاء خالصا لا غبن فيه وما سوى ذلك فصدقة أو تجبر وعدوان .

***

يا لحال المظلوم الخائف أن تسمع شكواه وتعرف نقمته ، يصارع صوت الحق فى نفسه ، ويأبى الصوت إلا أن يتمرد ويثور !

***

ارسم كلماتك ألحانا راقصة .. دوائر مجنحة .. زخرفا لا ينتهى على أمواج الصمت .

***

حرمانك من صديقك حرمان من نفسك وضياع لذاتك .

***

الثقافة ذروة .. فكرة جنونية .. طموح يتحدى العقل والواقع معا ... أن تجعل من حياتك عملا فنيا خالصا .. صورة قبسا من الكمال .

***

أن تحس يوما ، وقد لاحت عليك بوادر الشيب ، أنه لم يعد من حقك أن تحب .. ولا أنت فى أعين الناس أهل لأن تحب .

***

الكاتب الحق طبيب عبقرى مهمته أن « يشخص » الواقع البشع المرير دون تحرج ولا تورع ولا رفق ولا مجاملة ، على أن يتجاوزه ـ ويمكن القارىء من تجاوزه والتحرر منه ـ بضرب من التسامى هو سمة الفن وعلاجه العجيب ، واذا هو قادر على أن يواجهه ويتحداه بدلا من أن ينوء به ويشقى خورا واستخذاء .. يأسا واستسلاما .

***

كهل يتظرف ...؟ أم فتى يتشايخ ...؟ بل غلام شاخ دفعة قبل الأوان !!

***

الانسان فى زيفه وغروره لا يزال يذكر خيره القليل وينسى أو يتناسى شره الكثير .

***

قد أتنازل لك عن بعض من لباسى وعن مأكلى وشرابى ولربما عن بيتى الذى يؤوينى ، ولكن لن أنزل أبدا لك عن هوائى الذى هو قوام كل شىء وصلاح كل شىء !

***

علامة الاخفاق فى التمثيل أن الممثل يبدو كأنه يتأمل شخصه فى مرآة ، يراقب من حين لآخر حركاته وسكناته ، قد اتخذ المرآة شاهدا ورقيبا ، وكأنه ـ رغم براعته الظاهرة ـ لا يزال يجس دوره يتحسسه لم يتحد به شأن من لم يقتنع به بعد ولم يؤمن به إيمانا .

البشير المجدوب

آراء في مذكرات الشابي ورسائله

بقلم: أحمد الشنبوي

يبدو أن الباحثين قد اتفقوا على خطوط كبرى تمثل شخصية الشاعر التونسي أبي القاسم الشابي وتضبط حدودها فاذا تصفحنا ما كتب حول هذا الشاعر نلاحظ بسرعة أن محاور البحوث لا تتعدى الاربعة وهي : الوطنية والمرأة والطبيعة وأخيرا الرمنطيقية . وقد أقر جل الباحثين إن لم نقل جميعهم بتلمذة الشابي على الادب الغربي والمهجري لذا فشعره لم يكن سوى ترديد لما استقى من هذين المصدرين المعاصرين . أهذا هو الرأى النهائي ؟ ألا يجدر بنا أن نعيد النظر في هذه المحاور المتفق عليها ؟ ألا يحق لنا أن نتعمق في شخصية هذا الشاعر الشاب ؟ هذا ما أرومه في هذا البحث . غايتي في ذلك إعادة النظر في ما استقر عليه الرأى واتفقت عليه الدراسات أو كادت وللوصول الى هذه الغاية سأعمد الى التذكير ببعض آراء الدارسين للشابي ثم أهتم بتفسير رأيي وتحليله من خلال أثرين للشاعر يمثلان — على ما اعتقد — أحسن مصدر لفهم شخصيته هما مذكراته ورسائله .

آراء حول الشابي :

لن أتحدث عن العناصر التي ذكرتها آنفا وهي الوطنية والمرأة والطبيعة والرمنطيقية إنما سأهتم بالتذكير بالعنصر الاخير لشموله بقية العناصر الاخرى . واذا نظرنا الى ما قاله الباحثون حول هذه المسألة نلاحظ أنه تم الاجماع بينهم تقريبا على أن الشابي رمنطيقي موغل في الرمنطيقية ، فبعد أن قرر الاستاذ الشاذلي القليبي أن بعض قصائد الشابي « تعبر عن حبه للحياة وفتنتها » (1) سرعان ما يؤكد أن « الشيء الذي يلاحظ في شعر أبي القاسم

---

(1) الشابي وتجربة الفجر الجديد للاستاذ الشاذلي القليبي — انظر كتاب دراسات عن الشابي اعداد أبي القاسم محمد كرو ، تونس 1966 ، ص 9 .

عامة رفضه للحياة البشرية على أنها مظلمة مزيفة يصيب الانسان فيها الشقاء والالم . ويصل به هذا الرأى الى تقرير شبه الشابى بأبى العلاء المعرى الذى « يعتقد أن الشقاء فى الاختلاط بالناس » (2) ثم يقرر أن الشابى لم يثر ثورة « ترمى الى تغيير هذه الحياة وانشائها من جديد وإنما هى ثورة تهديمية ناتجة عن يأس متغلغل فى أعماق نفسه وملل وسآمة وارادة تحطيم » (3) وبذلك يجعل الشابى يعيش أزمة يحاول الخروج منها ، والمخرج الوحيد طبعا هو الموت الذى « ينقذه من الشقاء » .

وهذا التفسير لحالة الشابى فى شعره هو تفسير مبنى على عدم ربط هذه الحالة بما ورد فى رسائل شاعرنا ويومياته وبذلك يكون تفسيرا ناقصا إن لم نقل خاطئا .

ويذهب هذا المذهب الذى ذكرناه الاستاذ محمد العروسى المطوى اثناء حديثه عن وطنية الشابى فجعله ينطلق مؤمنا بقوة الشعب الى أن ينتهى به المسار الى « سلبية بغيضة ويأس قاتل » فتنتهى رسالة الشاعر نهاية « مفجعة » (4) بل إن أصدقاء الشابى وخلصائه وهو محمد عبد الخالق البشروش يقر أن « روح النقمة شائعة فى اشعاره أو فقل هى عمادها والتشاؤم طالع حياته والتشاؤم خاتمتها » (5) .

إن هذه الآراء الثلاثة فى شخصية الشابى ، وهى آراء نموذجية لبقية الآراء ، لا تدل فى الحقيقة على قراءة شاملة لآثار الشابى فتتكون بذلك صورة متكاملة لشخصية هذا الشاعر ومواقفه ... والرأى عندى ـ كما ذكرت اعلاه ـ أنه لا يمكن أن ننظر الى شعر الشابى وفنه بهذه التجزئة وهذا التفصيل الذى يمزق شخصية الشاعر ويجعلها شخصية إما مبتورة أو غير واضحة المعالم أو متناقضة . والشابى « لم يسلم ... من التناقض الذى يبدو فى هذا التردد بين الانطوائية والاتصال بالناس » (6) .

---

(2) نفس المرجع ، ص 11 .
(3) نفس المرجع نفس الصفحة .
(4) الشعب فى شعر أبى القاسم الشابى ، بقلم الاستاذ محمد العروسى المطوى ، كتاب دراسات ... ص 31 .
(5) نفس المرجع .
(6) الشابى وجبران ، محمد خليفة التليسى ـ طرابلس الغرب ليبيا ، فبراير 1957 ، ص 56 .

إننا كثيرا ما نخطىء فى دراسة الشخصيات الادبية وخصوصا الشعرية إذ غالبا ما نعتمد على جانب سرعان ما نجعله صورة كاملة لذلك الاديب أو الشاعر وبذلك نصل الى نتائج قل ما تكون موافقة للواقع . وهذا ما دفعنى الى قراءة « مذكرات الشابى » و « رسائل الشابى » والتمعن فيهما لأنهما صادقان فى الترجمة عن انفعالات الشاعر وآرائه ومواقفه – ولا غرو فى ذلك إذ هما كتبا لا للعموم إنما للخواص من الاصدقاء والمقربين. وكم هو حرى بنا أن نهتم بهذا النوع من الكتابات لفهم آثار الادباء اذا ما مكنونا من رسائلهم أو مذكراتهم أو الاثنين معا . وبذلك نتجنب أخطاء كثيرة . وهذا ما أحاول القيام به فى بقية البحث .

مذكرات الشابى ورسائله :

لم يصلنا من مذكرات الشابى إلا ما كتب بين الاربعاء 1 جانفى 1930 والخميس 6 فيفرى 1930 وهى مدة قصيرة كتب فيها اثنتين وعشرين مذكرة – ولعل الشابى لم يكتب غير هذه المذكرات .

اما الرسائل فقد اعتنى بنشرها صديق الشابى الحميم الاديب محمد الحليوى ولم ينشر منها سوى رسائله هو التى تبادلها مع الشاعر وهى قيمة رغم عددها القليل ، فيها ترجمة صادقة لآراء الشابى ومواقفه من قضايا عصره . فما هى أهم القضايا التى شغلت صاحبنا ؟

رؤية الشابى للحياة :

إن الشابى سبر الحياة واستقصى كنهها وكشف خفاياها فى أقرب وقت وأقصر مدة وهذا يعود لذكائه وشفافية حسه فعرف أنها تتكون من ثالوث مقدس هو « الحق والقوة والجمال » وهذا الثالوث هو جوهر قصة علاقة الشاعر بالحياة فبات يتغنى بهذه القيم ويعبدها ويدعو اليها . فالحياة فى صميمها ليست إلا مثلا يطمح الى تحقيقه الانسان ويشد اليه الرحلة . ولكن يجب أن لا نغتر بظاهر الاشياء اذ الشابى لم يكن مثاليا (7) مثالية مجردة ان صح التعبير . بل انه لم يطمح الى اشياء لا يمكن تحقيقها ... نعم ان « الحق والقوة والجمال » هى مثل على ما يبدو ، ولكنها مثل لها علاقة بحياة الانسان ، والانسان بدونها لا تستقيم حاله ولا يشتد عوده ليبنى الحضارة ويتغلب على المستحيل ، وهذا موقف اسلامى خالص .

---

(7) مرجع الهامش 1 ، ص 12 .

والشابى لم يستورد هذه المثالية من افلاطون كما يرى البعض (8) لان مثالية هذا الفيلسوف اليونانى مثالية عقيمة – فى رأيى – تبقى مجرد خيال ، أو مجرد أفق غير محدد يرنو اليه الانسان الى الابد دون أن يصلـه أو حتى يقترب منه . إن مثالية افلاطون مثالية خيالية أما مثالية الشابى فهى واقعية يمكن تحقيقها بل على الانسان أن يسعى لتحقيقها وإلا تنعدم انسانيته ويفنى جوهره منه الا وهو همته وطموحه . إن مثالية الشابى مثالية تكسب الانسان انسانيته وتحقق ماهيته وتبنى فى هذا الكون حضارته . فما الحضارة الا صورة لمثالية الانسان وهى صورة لطبيعته .

ولم يكن الشابى تلميذا نابغا لجبران (9) ولم يكن مقلدا للمدرسة المهجرية أو جماعة أبولو ... إن الشابى نطق عن تجربة شخصية جذورها فى الارض الاسلامية العربية وفروعها رهافة حسه وحدة ذكائه وشدة وعيه . وقد وردت نصوص كثيرة جدا فى يومياته وفى رسائله تعبر عن هذا الايمان القوى بالحياة وارادة تحقيقها لا على أنها أمر مستحيل ليس له علاقة بالانسان أو أنه من عالم افلاطون الموجود فى السماء انما تحقيقها على أنها الممكن بالنسبة للانسان والمثبت لانسانيته والمؤكد لماهيته .

وعلى هذه الارضية بنى شاعرنا فلسفة الحياة الواقعية لا النظرية لقد ورد فى مذكرة الثلاثاء 7 جانفى 1930 اثناء حديثه عن معارضة قومه له قائلا : « يقولون : صف لنا الحياة . وهل وصفت لهم غير الحياة منذ غنيت لهم أناشيدى . ولكنى حين وصفت لهم الحياة لم أصفها لهم من نواحيها القريبة الواضحة وانما وصفتها من نواحيها البعيدة الغامضة المحجبة بالضباب » (10) نعم انه ضباب المادة وضباب الجهل والامية وضباب الرضا بالدون والادنى . إن الانسان ليصعب عليه التخلص من ذلك الضباب لان الكسل يكبله ويقيده بل يشده الى الارض ، فهو طريح ، لا يستطيع أن يقف ويسعى ليحقق انسانيته .

---

(8) مرجع الهامش 6 .
(9) المرجع السابق ونلاحظ أن التليسى بالغ فى هذه الفكرة الى أن جعل الشابى مجرد ببغاء .
(10) مذكرات الشابى – النشرة الثالثة تونس – الجزائر بدون تاريخ ، ص 32 .

وورد نص آخر في مذكرة الخميس 9 جانفي 1930 يقول فيه : « وكنت اذا جلست الى الناس واستمعت أحاديثهم شعرت بالحاجة الى ما يثير عواطفي ويحرك وجداني ويؤجج في داخلي نيران الحياة لانني أرى الخمول يدب في مشاعري ويستحوذ على نفسي كأنها انقلبت قبضة من رماد خابية ... » (11) .

وبناء على ما تقدم يمكن أن نؤكد أن الحياة عند الشابي نيران لا تخبو وأوار لا ينطفيء . وتلك هي الحقيقة التي انتبه اليها وساقها الى الناس وطلب منهم وألح عليهم استساغتها ثم الايمان بها . وهذا هو المحور الاساسي في أعمال الشابي جميعها (12) لكننا يمكن أن نجد ثلاثة روافد لهذا المحور وهي : حياة الفرد ، وحياة الجماعة ، والوجود .

1 ـ حياة الفرد :

إن الفرد في نظر الشابي شخصية مستقلة ، لها ذاتها وخصائصها ومميزاتها ، إلا أن هذه الشخصية لا تتبلور ولا تنصع إلا اذا كانت واعية بذاتها مدركة لمكانتها في الحياة مقدرة لدورها مندفعة نحو العالم الانساني الحقيقي والوجود السني . وقد وجد الشابي في الاديب والشاعر هذه الشخصية الواعية ـ ولعل النظرة السريعة تجعلنا نقر بأنه قد أخذ هذه النظرية من الادباء الرمنطقيين الذين تغنوا بالذات وشدوا بالفرد . لكن شيئا من ذلك لم يكن فالشابي لم يقلد إنما استقى فلسفته وحكمته من واقعه وتجربته الشخصية وثقافته التقليدية العربية الاسلامية . فقد كتب يقول في مذكرة الاحد 5 جانفي 1930 متحدثا عن شخصية الاديب : « إن أكبر الشخصيات في عالم الادب والفنون إنما هي تلك الرؤوس المفكرة التي تعتز بما لها من مواهب وبما عندها من شعور والتي تشعر أن لها كيانا مستقلا ... » (13) .

ولم يكتف شاعرنا بتجديد مفهوم الفرد الممتاز انما ساق لذلك مثالين . ولم يكن المثالان من الادب الغربي الذي كثيرا ما سمعنا أنه تأثر به إنما هما من الادب العربي القديم ، « فالمتنبي قد كان عزيز النفس شاعرا بعزته وكرامته رغم امتداحه الملوك وبذلك تخطى اعناق الدهور الى سماء الخلود . والمعري

(11) المرجع السابق ، ص 39 .
(12) هذا هو محور أدب محمود المسعدي وخصوصا في كتابه « السد » .
(13) مذكرات الشابي ، ص 27 .

قد كان أكثر شعورا بعزته وكرامته وبذلك ابتكر مذهبا جديدا فى الفكر ومدرسة حديثة فى تفهم الحياة » (I4) فالمتنبى والمعرى شخصيتان ممتازتان لأنهما وعتا واقعهما وبذلك ينفى الشابى مفهوم القدم أو الجدة عن الانسان فكما قيل كل شيء يتغير الا القيم الانسانية والانسان . وهذا ما يتأكد عندما نجد شاعرنا يشيد بشخصية أدبية معاصرة هى صديقه الحميم محمد الحليوى فيذكر أنه قد وجد فى أدبه « روحا وقوة » لم يجدهما عند سواه (I5) .

إن الفرد فى نظر الشابى شخصية ممتازة أو لا تكون فهو ذلك الكائن الذى ينطلق من واقعه ليطغى عليه ويتسامى فيكون « نبيا » أو ما يشبهه . ولا يعنى ذلك أن الشابى قد كفر بالاسلام ومرق عن الدين . إنما يستلهم قيمه وأسس حكمته من الفكر الاسلامى ولم يخرج عن ذلك . وبناء على ذلك اعتقد أن هذا الرأى فى الفرد الممتاز قد استمده أبو القاسم من مذهب الصوفية الذى تأثر به منذ صغره اذ كان أبوه من كبار المتصوفين بالاضافة الى ازدهار هذا المذهب فى الجنوب التونسى وانتشار الاولياء الصالحين.والفرد الممتاز عند الصوفية هو القطب وهو أعلى درجات المعرفة والادراك . فقد نقل « نيكلسون عن عفيف الدين التلمسانى فى شرحه على مواقف النفرى أن مرتبة القطب هى مرتبة الانسانية الكاملة وله أن يهدى الناس الى سبيل ربه لا يطلب على ذلك إذنا من أحد ، وقبل أن يوصد باب النبوة كان يدعى نبيا . فأما فى أيامنا فانه يدعى شيخا . وهكذا يبدو التواصل بين النبوة والقطبية » (I6) .

ولست أقصد بهذه الحجة أن أبين أن الشابى متصوف صاحب طريقة صوفية إنما غايتى قبل كل شيء أن أقدم الدليل على ان الشابى لم تكن افكاره مستوردة ، ليست غربية ولا مهجرية . ولا أريد أيضا أن أنفى تأثره بما كان شائعا فى عصره من تيارات أدبية ومذاهب فكرية . ومجمل القول إن شاعرنا قد عبر بصدق عن تفكير عربى اسلامى خالص بنظرة عاقلة . وهذا التفكير هو

(I4) مذكرات الشابى ، ص 27 .

(I5) رسائل الشابى ، جمع محمد الحليوى الرسالة الثانية عشرة ، I0 أفريل 1932 ، ص 63 .

(I6) ذكره الدكتور كامل مصطفى الشيبى فى أطروحته القيمة الصلة بين التصوف والتشيع ، ص 463 ـ 464 ، وانظر ايضا فى التصوف الاسلامى لقمر كيلانى ، بيروت I 962، ص I54 .

ملك العرب والمسلمين قبل انحطاطهم وذهاب شوكتهم . أما وقد أصابهم ما هو معلوم من خذلان وتراجع فانهم عندما صحوا ظنوا أن آلة تفكيرهم وتعبيرهم هي آلة مستوردة ونسوا أن الثقافة هي كنز دفين متغلغل فيهم ما داموا يتغذون من الارض العربية الاسلامية .

إن الشابي اكتشف بسرعة عجيبة أن الانسان العربي هو إنسان ممتاز فذكر به معاصريه وألح على هذه الفكرة في رسائله ويومياته ونبه الى أن الضباب والظلمة والليل الحالك هي التي جعلت العرب لا يثقون بأنفسهم ولا ينطلقون من ذواتهم ليحققوا الحياة . فما هي أسباب هذا الانصياع لما يحيط بالجماعة من ظلمة وليل ؟ وما هي الجماعة ؟

2 ـ حياة الجماعة :

إن الجماعة في نظر الشابي تختلف عن الفرد اختلافا جذريا فهي كالكتلة الصماء الفاقدة لكل إحساس لانها كثيرا ما تكون ملتصقة بالواقع المادي متقوقعة في أتون الحياة اليومية رافضة لكل طموح وارادة . وهذه الجماعة تنقسم الى قسمين .

أ ـ المجموعات :

وهي تحتوي على عدد من الافراد دون تحديد لعددهم لهم وظيفة واحدة أو قصد واحد . ولم تخرج المجموعة في نظر الشابي عن نطاق تلك الفئات التي تشرف على المشاريع التونسية وقد لاحظ في شأنها أمرين :

1 ـ هذه الفئات كثيرا ما تعي واقعها فتنشأ فكرة الثورة وتقوى فترى التونسيين مثلا « نبغاء في بسط آرائهم ونظرياتهم والتحمس لها (مما) يدفعك الى أن تؤمل الآمال الكبار وتعتقد أنك تخاطب روحا متجسدة في فكرة تلتهب » (17) .

2 ـ ان هذه الفئات لا تسعى الى تجسيم هذه الفكرة وبعثها عملا قائما بذاته إنما يقف مستوى الثورة عندها الى هذا الحد دون تحقيقها ... فهذه الجماعات

---

(17) مذكرات الشابي ، مذكرة يوم الاثنين 27 جانفي 1930 ، ص 68 .

صاحبة إرادة يائسة إن صح التعبير . وقد ثار الشابى على هذه الطريقة فى النظر الى الحياة وجعل أصحابها مغرورين ، تثق فى دعواهم وطموحاتهم « حتى اذا جاء دور العمل تمزقت تلك البراقع وخمدت تلك النزوات وتكشف البرقع البراق عن وجه الحقيقة الأربد وانجاب طلاء الشباب ونضارة الفتوة المستعارة عن تجعدات الشيخوخة وقبور الخمول » (18) .

إنك اذا نظرت الى هذا الاستشهاد تلاحظ مجموعتين من الالفاظ الاولى : العمل والحقيقة والشباب والقوة ، وهى ألفاظ تمثل ما يؤمن به الشابى فى حياة الناس وما يلتزمه التزاما ، اما الثانية فهى الالفاظ التالية : البراقع ، ونزوات ، والبرقع البراق ، وطلاء ، ومستعارة ، وتجعدات الشيخوخة ، وقبور الخمول ، وهى ألفاظ تدل جميعها على واقع الجماعة فهى تعيش الزيف والطلاوة لا تدرك الحقيقة لأن الحقيقة تحتاج الى شباب وعمل أى الى إرادة وتنفيذ .

وهذه الفئات التى وصفها صاحبنا تدل على معاشرته لها واطلاعه على خفايا نفوسها وخصائص طبائعها فكيف نقول : إن الشابى كان رمنطيقيا سلبيا يعزف عن الحياة ولا ينظر اليها كما هى ؟ الا ان الشابى لم يكن أرضيا فى فلسفته وفنه واحساسه إنما هو سماوى إنه إنسان إنسان .

لقد عمد الشابى الى الكشف عن طبائع هذه الفئات وحاول أن يبين سلبياتها فهى تغط « فى سبات الاحلام اللذيذة » وهى مع ذلك تدعى اليقظة والشعور ولذا تعمد الى مهاجمة محبى الحياة ومريديها . لقد ثارت هذه الفئة على الشاعر وأضرابه وناصبته العداء وكالت له الشتائم ، بل وانقضت عليه حتى أصبح يشعر بألم مر . ان صاحبنا أصبح يشعر بالغربة فقد كتب فى مذكرة الثلاثاء 7 جانفى 1930 قائلا : « أشعر الآن أنى غريب فى هذا الوجود وأننى ما أزداد يوما فى هذا العالم الا وازددت غربة بين أبناء الحياة وشعورا بمعانى هاته الغربة الأليمة » (19) .

إن الشابى اجتماعى وليس رمنطيقيا كلفا بالحياة الخاصة المنعكسة على الذات الرافضة للخلطة والعدد . وايمانه بحياة الجماعة هو الذى جعله يتألم

(18) نفس الهامش الفارط .
(19) مذكرات الشابى ، ص 31 .

شديد الألم ويشقى ... إلا أن هذا الواقع الذى فرض عليه لم يجعله ينطوى أو ينزوى أو ينعزل إنما دعا ـ فى حرارة وإيمان ـ أمثاله من المؤمنين بالحياة الحقيقية حياة الانسانية الصادقة قائلا : « لنعرض بأبصارنا عن أشباح الموت وغيلان الظلام السارية فى أعماق الوادى وفى شعاب الجبل ولنصرف اسماعنا عن صرخات اليأس وأصوات الأبالسة فان فى الذروة العليا موسيقى الوجود الخالدة وفجر الحياة السرمدى » (20) والسبب فى هذه الدعوة حبه للحياة من ناحية كما ذكرت وخوفه من أن يتردى الى الحضيض ويهبط الى الحياة السافلة حياة الحيوان والكواسر فتحق عليه لعنة الله والحياة . وهذان الأمران يحتمان علينا أن « نرتفع ... بأجنحتنا الصغيرة فوق هاته الحيوات الحقيرة التافهة ولنحلق فى آفاق النور والحق والجمال بكل ما فى ايماننا من حماس وبكل ما فى شبابنا من قوة وحياة طموح » (21) .

إذن ليس لنا أن نتهم الشابى بالمثالية الافلاطونية تلك المثالية المجدبة القائلة التى تثبط عزم الانسان وتجعله فاشلا مسبقا ليس له أن يسعى ويعمل. إن الشابى آمن بواقع مغاير للواقع العادى لأنه إنسان واع ومدرك لمصيره .

ب ـ **الشعب** :

إن مذكرات الشابى ورسائله لم تتحدث عن الشعب ذلك أن صاحبنا لم يعتن به بقدر ما اعتنى بالجماعة فى مفهومها الضيق رأينا أعلاه أن المجموعة لها كيان وخصائص وطبائع.أما الشعب فهو جماعة أكبر لم نعثر لها على حدود أو خصائص ويمكن تفسير هذا الاهمال بموقف أبى القاسم من هذه الجماعة فهى نكرة لم تستطع أن تثبت ذاتها وتبرز مكوناتها . ولا نعجب من ذلك فاذا تذكرنا موقف الشابى من الجماعة الصغرى التى تحدثنا عنها فى العنصر السابق ورأيه فيها يمكننا عندئذ أن نتصور سبب اهمال هذه المجموعة الكبرى . إن الجماعة الصغرى هى جماعة مثقفة مبدئيا ، لها قدرة على الادراك لكننا رأينا أنها كانت على أسوإ حال من السعى والارادة والطموح .

---

(20) رسائل الشابى ، الرسالة الثانية والعشرون للحليوى بتاريخ 22 فيفرى 1933 ، ص 99 .

(21) انظر الهامش السابق .

3 ـ الوجود الانساني :

لم يحاول النقاد الذين درسوا أدب الشابي أن ينظروا الى هذا الموضوع نظرة عميقة تعتني بمفهوم الوجود في فلسفة الشابي التي تكون نظاما متناسقا . وعناصر هذا النظام هي : الرجل والمرأة والطبيعة .

أما العنصر الاول فقد تحدثنا عنه فيما تقدم إذ أن الشابي لا يقصد غير الرجل عند حديثه عن الفرد والجماعة بقسميها المجموعات والشعب .

أما العنصران الثاني والثالث فهما لا يختلفان من حيث جوهرهما بل يتكاملان أحيانا ويختلطان ويتمازجان وينصهران في أغلب الاحيان . إن أبا القاسم لا يرى فرقا واختلافا بين المرأة والطبيعة فقد ذكر في مذكرة الجمعة 3 جانفي 1930 متحدثا عن خلواته في ذلك المنتزه الجميل الحبيب الى نفسه : « أنا ما أردت الذهاب الى البلفيدير (22) إلا لأمتع نفسي بتلك الطبيعة الجميلة الساحرة وبأسراب الغواني المتخطرات بين الغصون الوارفة وخلال الخمائل تنمقها أوراق الاشجار البنسجية » (23) يبدو مما تقدم ان فكرة مزج المرأة بالطبيعة والعكس هي فكرة غربية مأخوذة من الرمنطيقية أو هي مهجرية . الا أني أرى أن الشابي قد استقى فكرته من ثقافته العربية الاسلامية ثم عبر عنها تعبيرا عصريا فتراءت لنا مستوردة . ولا شك أن الشابي قد استغل أحسن استغلال طاقته التعبيرية وقدرته البلاغية فأوهمنا أن فكرة المزج بين الطبيعة والمرأة هي أجنبية ومهما يكن من أمر فانني وجدت نصا تذكرنا الفكرة فيه بفلسفة أبي العلاء المعري في تحريم أكل الحيوان فقد تحدث أبو القاسم في مذكرة السبت 4 جانفي 1930 عن خلواته في البلفيدير قائلا : « كنت آتي منفردا بنفسي متتبعا هاتيك السبل الصغيرة بين المزارع ومحاذرا أن أدوس زهرة يانعة أو أكسر غصنا يداعبه النسيم . فقد كنت أشعر في أعماق قلبي أنني ارتكب جناية كبرى حينما أقطف زهرة ناضرة أو غصنا رطيبا » (24) لكن لماذا يرفض أن يقطف هذه الزهرة ويكسر ذلك الغصن وقد وهبهما الله ليتمتع بهما ويغتبط ؟ أقطف زهرة وتكسير غصن يعتبر حقا جناية كبرى ؟

---

(22) أهم حديقة في تونس العاصمة يؤمها الناس لجمالها وكثرة أشجارها وجمال طبيعتها .

(23) مذكرات الشابي ، ص 17 .

(24) مذكرات الشابي ، ص ص 20 ـ 21 .

إن الشابى لا يقف عند ظاهر الاشياء ولم يتقيد بقيود الواقع العادى إنه حاول أن يسبر الحياة وقد نجح بسرعة عجيبة كما رأينا فى معرفة جدول الحياة فهى لا تختلف بين الكائنات الا فى الظاهر « ألست أرى تيار الحياة بتسلسل فى أعماقنا (أى الزهرة) على مهل وأراها ترمق الافق الجميل » (25) وبذلك تصبح الكائنات فى فلسفة الشابى لا تختلف فتصبح الزهرة فى الطبيعة « ترتعش بين احضان النسيم ارتعاشة الغانية على صدر عاشقها السعيد » وتتحرك « وريقاتها الصغيرة ... حركة من يهم بالكلام كأنما تحاول أن ترتل أغنية الحب والجمال » (26) .

وقد ساقت هذه الفكرة صاحبنا الى التعبير عن مفهوم اسلامى للكون والكائنات يتمثل فى وحدة الوجود . فماذا يقصد الشابى بذلك ؟

وحدة الوجود :

هى نظرية اشتهر بها ابن عربى وجعلها محور فلسفته وهى تتمثل فى « أن لا موجود إلا الله ومع ذلك فتتعدد بتعدد التعينات تعددا خفيفا واقعا فى نفس الامر وهذا التعدد لا يوجب تعددا فى ذات الوجود » (27) وتمثل هذه النظرية عدة اخطار من الناحية الدينية لا فائدة فى ذكرها الآن . وما يهمنا منها هو التعبير عنها بأسلوب أبسط فى أدب الشابى ، فهو لم يفلسف الامور الى مستوى ابن عربى (28) .

---

(25) نفس المرجع والصفحة 21 .
(26) نفس المرجع والصفحة .
(27) فى التصوف الاسلامى مفهومه وتطوره وأعلامه لقمر كيلانى ، بيروت 1962 ، ص ص 105 ـ 106 .
(28) هو أبو بكر محمد بن على محيى الدين الحاتمى الطائى المشهور بابن عربى وهو فيلسوف متصوف عاش بين 560 هـ 1164 م ـ 638 هـ 1240 م بالاندلس ، انظر المرجع السابق وانظر أيضا أطروحة عمار الطالبى : آراء أبى بكر ابن عربى ـ الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر 1975 .

إن الثقافة الزيتونية (29) التى تحصل عليها الشابى طبعت تفكيره فجعلته اسلاميا عميق الجذور ، لقد حث الاسلام على التأمل فى الكون والمخلوقات والنفس . وغايته من هذه الدعوة هى أن يدرك الانسان سر الخلق فى الكون . ولذلك سلح الله تعالى هذا الانسان المميز (بالفتح) بعقل وادراك . وقد استغل الشابى هذين المصدرين : الثقافة والعقل . فقد مكناه ، من تمييز ظاهر الاشياء من باطنها . أما الظاهر فهو ما تشترك فيه كل الاحياء . الانسان والحيوان والنبات فكلها تتفق فى التركيب البيولوجى وكلها تستوى فى احتياجها للغذاء والتناسل وكلها فى حاجة للحرارة لتعيش وكلها لها حياة موقوتة . أما الباطن فهو ما يمتاز به الانسان دون غيره من ادراك للكائنات الاخرى . فاتفاق المخلوقات فى نفس المكونات ليس دليلا على عدم اختلافها . إن الانسان ينفرد عنها ولذا فهو وحده صانع الحضارة .

وإذن يتسنى لنا مما تقدم فهم نظرة الشابى الى الكائنات فلا فرق بين الطبيعة والمرأة إلا فى كون الثانية إنسانا له قدرة ادراك ذاته وواقعه وكذلك الشأن بالنسبة للرجل . وقد كتب يعبر عن هذه الفكرة فى مذكرة السبت 4 جانفى 1930 قائلا : « كنت أحس بروح علوية تجعلنى أحس بوحدة الحياة فى هذا الوجود وأشعر بأننا فى هذه الدنيا ـ سواء فى ذلك الزهرة الناخرة أو الموجة الزاخرة أو الغادة اللعوب ـ لسنا سوى آلات وترية تحركها يد واحدة فتحدث أنغاما مختلفة الرنات ولكنها متحدة المعانى أو بعبارة أخرى إننا وحدة عالمية تجيش بأمواج الحياة وإن اختلفت فينا قوالب هذا الوجود » (30) .

إن الشابى مؤمن أصدق الايمان بانعدام الاختلاف بين الكائنات ومن هنا مزج بين الطبيعة والمرأة ومن هنا قدس الطبيعة والمرأة ومن هنا عبد الطبيعة والمرأة .. ولأنهما مظهران من مظاهر الحياة يتجسم فيهما الحق والقوة والجمال. ولأنهما الحياة ذاتها فانه شدا بهما سويا الى أن توفى فى ريعان شبابه .

---

(29) جامع الزيتونة هو أشهر الجوامع بشمال افريقيا كان قبلة المعلمين والمتعلمين . فيرحلون الى تونس لينسبوا اليه . انظر معاهد التعليم الاسلامى للدكتور سعيد اسماعيل على ، القاهرة 1978 ، ص 124 .

(30) مذكرات الشابى ، ص 21 .

الخـــاتمـة :

لقد تبين من خلال ما تقدم أن الشابى أصيل فى أدبه وفنه لأنه أصيل فى ثقافته وتعليمه ولأنه معتز بشخصيته العربية الاسلامية . وهذه الاصالة لـم تمنعه من أن يكون معاصرا فى أسلوبه ولغته . إنه أبعد الناس عن التقليـد وعن التلمذة المباشرة لقد كان أديبا صادقا فى أدبه وفنه وصدقه تـرجم عنه فى رسائله ويومياته . كان صادقا فى تجربته الانسانية . لقد باشر المجتمع مباشرة وغاص فى أعماقه وعرف حقيقة الانسان العـربى الاسـلامى لم يكن غريبا عن المجتمع ولم يحب الانفراد والعـزلـة كمـا أحبهمـا الـرمنطيقيون الاوربيون الرافضون للواقع والعقل ... وكان صادقـا أيضا فى التعبيـر عن تلك التجربة المباشرة . لم ينافق قلمه ولم يلبس مرارة الواقع حلاوة الخيال . لقد كان صريحا فى كلمته الى أبعد الحدود . إنه فنان بأتم معنى الكلمة ولذلك فهو إنسان .

وإن وصل القارىء ليومياته ورسائله الى مثـل هـذه النتيجـة وهى تميز الشابى عن معاصريه فلا يعنى ذلك أن ديوانه قد جـاء فيـه مقلـد المذهب لم يختص به . والحديث عن الديوان يحتاج الى وقفة أخرى . وهذا ما أنوى القيام به فى مناسبة قريبة إن شاء الله تعالى .

أحمد الشتيوى

رحيلاً في صهيل النهر الآتي

شعر : يوسف رزوقه

① في مقهى « علي بابا » :

تسلقني صديقي مصطفى فتسلق الخبر الأخير وأغلق البابا
وفي مقهى « علي بابا »
خلقنا مرتعا خصبا وأحبابا
ونبقى في الشذى نتعمد الزلفى
وفي أغوارنا المنفى
ودوما نلتقي في كل شوق والشذى عاده ،
فنرحل في صهيل النهر حتى نحرج الساده
ونلعن فارسا نغتاله في لحظة غاده ..

* * *

صديقي مصطفى : كلهم لن يفهموك فكن حريقا يغسل الزمنا
وكن غضبا نرى في لونه الوطنا
وكن يقظا ولا تغلق يديك فتهمل الرسنا
صديقي مصطفى ، وظلالك الحمراء في أدبي :
يسرك أنني عربي ..
ويفرحك الغد المخبوء في غضبي ..

② مشتاق حتى الذوبان الى امرأة صعبه :

كل امرأة لا تفهمني هي بالطبع امرأة قـ ....
وأنا في الواقع مشتاق حتى الذوبان الى امرأة صعبه ..

تتوقعنى آتى ومعى الآتى
تتوقع أيضا مأساتى
لكن ، إن عدت فهبت تفتح مرضاتى
فسأعرف عندئذ :
أن ملامحها نكراء وأن بصيرتها لا تبصر مأساتى
وسأعرف أيضا أن جميع مزاعمها الخرقاء تغمدها الاعصار ...
هل تدفعنى امرأة زرقاء الى أن أفقد عشقى الخلاقا ؟
لا ، لا ، لا ، لا ، لا ، لا، لا ، لا ، لا ....
المرأة وجه شفاف ، شفاف أو لا بورك فيها إطلاقا ..
المرأة تفتح آفاقا ، لا تغلق آفاقا :
....
وأنا ما زلت اليها مشتاقا ...

③ رسالة قصيرة جدا :

لأن القحط يغمرنى ،
حذفت العيد من همى ،،
فلا تبكى !
غدا سأعود يا أمى !..

* * *

سأشرح كل أتعابى
وألقى كل أحبابى
وإن سأل الشذى عنى
سأفتح كل أبوابى ...

④ واقـــع :

أنا بين قوسين : طالب !
وأسكن رفقة جرحين عند الجناح الأخير

وفى غرفة من طراز أخير
بها الضيق ضاق
وبالرغم من ضيقها نتلاقى
فنحكى عن الكبت ...
نحكى عن الصمت ...
نحكى عن الموت ...
نحكى عن المقت ...
عن طالب شنقته الأعاصير ...
عن طالب ورطته المسافات ...
فاغتاله الزمهرير ...

* * *

أنا بين قوسين : طالب !
أحب الجميع ...
وأرحل مثل الجميع
ولا أستطيع
ركوب القطار السريع
فيحمر وجهى وتنمو المخالب ..
ويولد نهر من السخط غاضب ..

⑤ صحوة النهر فى اللحظة ـ المستنقع :

وأرى فيكم منفاى ومقصلة الآتى
يا حين أكون بساحتكم رجلا شفافا ، مفتوح الصفحات
أأنكس رأسى كى أمضى ؟
أم أفتح فى رأسى إعصار النار ونافذة الرفض ؟.

يوسف رزوقة
20 / 10 / 1979

سوسة الساحرة
ماضيها .. وحاضرها .. ومستقبلها ..

بقلم : أحمد خالد

إنها مدينتنا تستوجب منا الخدمة والتعظيم ، أنبتتنا فغذانا هواؤها وماؤها ، وآوتنا دورها وأحياؤها وفتنتنا طبيعتها الساحلية بشواطئها الذهبية اللازوردية ، وعلمتنا مدارسها حب الحياة ولذيذ طعم الكد وعشق الوطن والاهل والدار ، فعز علينا فراق سوسة ساحرتنا كلما تجاذبتنا الفرص خارجها في بلاد الغربة ، فشرعتنا حب أرضها الطيبة التي فتنت كل مقيم ونازل بها من أهلها وقصادها عبر الزمان .

انظر معالمها العتيقة من دوامسها الى سورها ، وزر قصر رباطها ومسجدها الكبير ، وتجول في قصبتها ومتحف فسيفسائها ترحل ببصرك وخيالك عبر الايام في مسيرة تاريخية حضارية شيقة ، فتسترجع ذكريات الاجداد ، وتتوغل في صميم ماضيك حتى تنحدر الى القرن الحادي عشر قبل الميلاد حينما أرست سفن بونيقية على شاطىء سوسة ، فطاب لنوتيتها وأربابها المقام بأرضها ، فأسسوا مرفأهم التجاري ، ثم تعاقبت بعدهم امبرياليات نسفت حضارات وشادت على أنقاضها حضارات أخرى من الرومان الى الوندال فالبيزنطيين ، ثم جاء الفتح الاسلامي وتلاحقت الدول بافريقية وتركت آثارا تشهد بعظمتها حتى نكب وطننا في عهد البايات بالاحتلال الفرنسي فتوهم الاغراب أن هذه الدار لهم قطعة من ترابهم اللاتيني فتصرفوا فيها تصرف الغزاة الاسياد حتى جاء المنقذ النصير للحق ، فجمع شتات الامة ، وفك اسارها ، وخلصها من عذاب الاغتراب في وطنها ، وشاد دولة الشعب لاول مرة في تاريخ تونس ، فحظيت سوسة بعديد من انجازات العهد البورقيبي ومازالت تتطور وتزدهر في ظله .

وما قصدت ربط الماضي بالحاضر الا لتواجدهما على أرض سوسة في هذه الرحلة التاريخية حيث تتاح للمتأمل في أرضها ومعالمها فرصة التوغل في صميم الماضي وهو مرتبط بحاضره مدفوع نحو مستقبله محاط بمرافق الحياة العصرية والمنشآت الصحية والترفيهية والاجتماعية بأصنافها ، والثقافية والرياضية والسياحية والصناعية والتجارية والعمرانية السكنية التي تكاثرت وتعاقبت بسرعة مذهلة منذ عهد الاستقلال وما زالت في نموها مطردة بمن من الله وعزم أهل المدينة .

سوسة التي تهز مشاعرنا قريبة وبعيدة مناظرها زخارف ابداع تروق محبيها وزوارها وتهدى لكل راغب في معرفتها فشكلها الحالي يعكس على أرضها ماضيها وحاضرها ومستقبلها .

انها تعيش اللحظة الواحدة في الماضي بآثارها ومعالمها ومعابدها ومنتوج حفرياتها وتقاليد الاجداد وروح الابطال كما تعيش في الحاضر واقعنا بسهولة استيعاب التمدن وبيسر احتضان محدث المنشآت ، وتواجه المستقبل بخيال مجنح يولد المشاريع ويخلق الامكانات .

وقد أصابوا عندما لقبوها جوهرة الساحل اذ أنك من حيث قاربت هذه المدينة الساحلية المشمسة السابحة في عذوبة الضياء المنحدر من سماء زرقاء نادرة التغيم بدت لعينيك كعرق لؤلؤة ناصعة البياض في عمق لازوردي بشاطيء بهيج ذي رمال ذهبية .

ومتى تأملت من بعيد هذه الدرة الفريدة التي أودعها على الساحل بكل لطف تدبير العناية الالهية ، فنعمها بدرج حلي من خضرة المنتزهات وحدائق دور الاحياء وأحاطها من جانب الغرب بغابة الزيتون تملكك شعور بالروعة والذهول .

وبتفتحها شرقا على ضفة البحيرة السخية لحوض البحر الابيض المتوسط ـ وهو مهد الحضارات ـ ثم بحرصها الكبير على أن تتحمل بكل دقة واخلاص قدرها المتمثل في كونها عاصمة لاكثر الجهات حيوية في بلاد المغرب لعبت سوسة دورا هاما عبر التاريخ وما زالت على ذاك الدرب مواصلة دورها الحركي .

سوسة تلك المرآة الصافية التي تعكس لناظرك صورة بلاد وجدت في ملتقى الطرقات فكانت موطن اللقاءات تهبك علم الارض ، فتأملها جيدا من جهة المتحف في موقعه الحالي .

في هذا المتحف المهيا بعد الحرب العالمية الثانية لحفظ نفائس الحفريات وبالخصوص الفسيفساء العجيبة ببهاء ألوانها وأصالة ايحاءاتها الافريقية التونسية وطريقة صنعها كما في اللوحة المشخصة لانتصار ديونيزوس يتنضد بوضوح طبقى ظاهر للعيان عديد من المستويات الحضارية التى تعاقبت على المدينة .

في مدخل تلك البناية المندمجة في القصبة والكائنة حذو قاعدة البرج الاغلبى الذى بناه خلف الفتى مملوك زيادة الله بن الاغلب فى أواسط القرن الثالث للهجرة = التاسع الميلادى = كشفت حفريات سنة 1959 عن أنفاق قبرية بونيقية فأمكن تأريخها بالاستناد الى اثاث المأتم وثلاث قطع نقود قرطاجنية وجدت على صدر الميت ونقش على وجهها تمثال نصفى وعلى قفاها رأس حصان، ويرجع عهدها الى القرن الثالث قبل الميلاد - وينخفض مستوى تلك الانفاق القبرية المشاهدة فى احدى قاعات المتحف عن مستوى الآثار الرومانية المتأكد من وجودها فى نفس المكان بفضل بقايا فسيفساء بنى فوقها الجدار الغربى .

وشهد حصن القصبة حيث هيىء المتحف الحاضر تعاقب الدول التى حكمت البلاد ثم استعمل فى عهد الحماية معسكرا للجيش الفرنسى ، أما الآن فقد وجد اختصاصا جديدا ثقافيا وأثريا فنيا ، وهو بمناظره لا يزال يواصل انارة الافق البحرى .

وتطول المناقشات حول أصل المدينة فيتساءل الباحثون أكانت فى بداية نشأتها بربرية أم بونيقية لان الوثائق المتوفرة لهم فى هذا المجال قليلة مختصرة - الا انك تستطيع اعتبار تأسيسها قد تم منذ ما يزيد عن ثلاث آلاف عام من جراء مغامرة سارة أقدم عليها شعب من الملاحين المهرة ومن التجار الجسورين أعنى البونيقيين الذين خرجوا من مدينة صور ببلاد الشام واعتادوا الملاحة الساحلية فأرسوا سفنهم فى المياه الدافئة على شواطىء المنطقة التى كانت تدعى قديما بيزاسين فى موقع بلدة بربرية حسب الظن .

انهم لقبوا حضرموت ذاك المرفأ الآمن فعد من مرافئهم التجارية الاولى على الساحل الافريقى واعتبر فى البداية سوقا لتبادل البضائع ، ثم صار فيما بعد مستعمرة توطينية بنيت قبل تأسيس قرطاج فى موقع سوسة الحديثة بجنوبى الرصيف الحالى لبرج خديجة - وقد تحملت حضر موت قدرها كمدينة وديعة مزدهرة فسطع نجمها - وهذا يجعلنا نتساءل هل حققت بتصرفها

الذاتى فى مصالحها استقلالها عن قرطاج ؟ اننا لا نستطيع الجزم بذلك ـ فقد بقى استقلالها الادارى وهميا أوان السلم وأكثر وهما أوان الحرب تحت الضغط الاقتصادى والسياسى والعسكرى المسلط عليها من العاصمة القرطاجنية القوية وورثت سوسة من تلك العهود المزدهرة عن مؤسسيها المشارقة القريبين من البربر روح الاقدام وتعلقا كبيرا بالاتجار لكن اتجار أهلها كان سمحا فيما يبدو .

وأرضها المحتوية على المعبد البونيقى « التوفات » Le Tophet المكتشف فى سنة 1946 تحت الكنيسة التى كانت قبل الاستقلال قائمة قبالة المسجد الكبير فأظهرت حفرياتها أنصابا وأوانى وعظاما حولت رمادا بالحرق وعرضت فى المتحف تشهد بقساوة شريعة تانيت وبعل حمون التى فرضت على الاتباع فى طقوس الازمان الاولى قرابين من صغار الاطفال يلقى بهم فى النار .

وبعدما أصبحت حضر موت مع قرطاج منافسة لروما عرفت التقلبات التى أوجدتها الحروب البونيقية طوال مائة وثمانى عشرة سنة من سنة 264 الى سنة 146 قبل الميلاد ـ وهذه السنة الاخيرة شهدت احتلال روما لقرطاج بعد تدميرها فى أعقاب حرب طويلة ـ وبالرغم من صمودها فى الحرب البونيقية الثانية فى عهد حنبعل نجت حضر موت من الثأر الرومانى .

أما رجوع حنبعل الى افريقية فقد تم بكل سرعة فنزل ذاك القائد العظيم سنة ثلاث ومائتين (203) بلمطة على الساحل فى جنوب سوسة ومنها قصد حضر موت بعدما اضطر الى فك الخناق المضروب على روما عقب اجتيازه جبال الآلب على أفياله فى مسيرته الملحمية ضد الرومان الذين وجهوا جحافل شبيون Scipion الى قرطاج لمشاغبة حنبعل ومقاومته على أرضه عندما شعروا بتهديد جدى لكيانهم فى عقر دارهم .

وآنذاك اتخذت المدينة خزانا للحبوب وملجأ لقيادة حنبعل وقاعدة انطلاق لعساكره التى كانت تخوض بجامة فى منطقة الكاف معركة حاسمة ضد جيش شبيون الافريقى .

واذ كان الاهالى لا يستطيعون فى زمن الحرب النجاة من الجور فان حضرموت التى هزتها تعسفات مرتزقة القائد الكبير استخلصت العبرة من الاحداث عقب الحرب البونيقية الثانية عندما أرغم حنبعل بسوء حظ السلاح على الهجرة الى المشرق حيث مات .

واذا استطاعت المدينة ان تلازم الحياد اثناء الحرب البونيقية الثالثة فقد تحصلت من المنتصرين الرومان على امتياز المدينة الحرة فى افريقية المنقادة تماما آنذاك للسلم الرومانية المحروسة الحدود بحزام قوى سمى « الليماس » .

ومنذ ذلك العهد عرفت حضر موت فترة هادئة حتى أوان انتقال التطاحن على الحكم بين بومبى وقيصر الى افريقية .

وفي مطاردته عساكر خصمه نزل قيصر سنة سبع وأربعين قبل الميلاد بحضرموت فسلط على المدينة جزية قوية عقابا لها على احتضانها أنصار منافسه بومبى ، وجردها من امتيازها كمدينة حرة ـ وبعد مدة طويلة رفع الامبراطور « تراجان » قدرها فجعل أهلها يتمتعون بحقوق الانتساب للوطن الرومانى .

وفيما يخص تطور المدينة العتيقة فقد بلغ أوجه فى عهد أسرة سيفير فى القرن الثالث مدة الحضور اللاتينى .

تلك المدينة الوديعة التى قطنها تجار حازمون وأصحاب حرف مترفون كانت قليلة الميل الى حمل السلاح ـ واذ ما عرفت من الحروب الا أهوال النهب والتقتيل الصادرين عن أقاتوكل سراقوزا سنة عشر وثلاثمائة قبل الميلاد أثناء الصراع بين القرطاجنيين واليونان وتنكيدات احتلالها من قبل حنبعل ومرتزقته فى سنة ثلاث ومائتين والجزية القاسية المسلطة على أهلها بأمر من قيصر سنة ست وأربعين فكم كانت تود لو بقيت بمنأى عن تلك الخصومات الدامية التى كانت تعرقل نشاطها ومسيرتها الحضارية ، الا أن الواقع ما سمح لها دائما بارضاء رغبتها فى السلم والعمل المثمر .

واذ ظلت المدينة مخلصة لنداء أرض اللقاءات الجبلى فيها ، متفتحة للافكار الجديدة فسرعان ما احتضنت الديانة المسيحية ابان ظهورها ودفعت ثمن التضحية بعديد من شهدائها الذين سقطوا فى عهد الامبراطور السفاح سبتيم سيفير عندما اضطهد معتنقى تلك الديانة وطاردهم فى المقاطعات اللاتينية .

وتظل دواميس الراعى الطيب وهرمس وسيفير الكائنة بسوسة حذو خزان الماء ببوحسينة وكذلك الكتابات القبرية العديدة والفسيفساء المأتمية شاهدا نفيسا على ماضى افريقية المسيحية .

ثم جاء الوندال فى سنة 349 ومكثوا بالمدينة حتى سنة 534 واذ كانوا غلاظا جفافا فقد عجزوا عن خدمة الثقافة وبناء الحضارة فى مدينة سوسة التى سموها « هونريكو بوليس » سنة 480 تخليدا لذكرى ملكهم الثانى هو نريك .

وبعد محنة الوندال الدموية وما تسببوا فيه من دمار استقبلت المدينة محرريها جيوش بيزنطة فسميت آنذاك «جستنيانوبليس» Justinianopolis فيما بين سنة أربع وثلاثين وخمسمائة (534) وسنة سبعين وستمائة (670) اعترافا بجميل الامبراطور جستنيان الذى خلصها من قيودها .

وفى فجر الاسلام لما تدفقت جحافل الفرسان المسلمين من شبه الجزيـرة العربية لفتح افريقية فى القرن الاول للهجرة الموافق للسابع الميلادى ولنشر دين الله والمبادىء الاسلامية القائمة على الحرية والمساواة والاخوة لم تتأخر سوسة عن اعتناق الدين الحنيف وأصبح فقهاؤها حججا وبراهين فى الفقـه المالكى ونجم منها أعلام فى فنون أخرى كالشاعر أحمد بن أفلح السوسى القائل :

سيبلغ ذكر سوسة كل أرض ويغشى أرضهـا الجم الغفيـر

وسرعان ما احتلت المدينة مركزا مرموقا فى اشعاع الحضارة العـربيـة الاسلامية فانطبعت منها بطابع لا يمحى ، ومن يبغ الاقتناع بهذا الاثر العميق فما عليه الا أن يتذكر أن سوسة قد ساهمت مساهمة فعالة منذ أربعة عشر قرنا فى مصير المغرب العربى مع تعاقب الدول الاسلامية فى الحكم بافريقية من أغالبة وفاطميين وزيريين وموحدين وحفصيين ومرادين وحسينيين ـ وقد أولت كل تلك الدول أهمية كبرى للمدينة فاعتبرتها دائما مركزا هاما فى استراتيجيتها السياسية .

ولما اندلعت ثورة على بن غذاهم فى سنة 1864 احتجاجا على الحكم القهرى للبايات تولت ادارة شورية من الشرع « مجلس الفقهاء » تسيير شؤون المدينة مبشرة هكذا قبل الاوان بالنظام الشعبى الذى شمل البلاد عقب الاستقلال فى ظل الجمهورية .

ولموقعها الاحترابى استعملت المدينة قاعدة انطلاق لكبار الفاتحين المسلمين الذين تولوا نشر الرسالة المحمدية فى ربوع قلورية Calabres وقوصرة Pantallaria وصقلية وسردينيا ومالطة .

واستعملت سوسة آنذاك ترسخانة لصنع الاساطيل وحصنـا منيـعا فـى سلسلة القلاع المقامة على طول الساحل بغية تزهيد الغزاة فى الاستيلاء على دار الاسلام بانتباه المرابطين فى تلك القلاع ويقظتهم الدائمة وحماسهم وصلابتهم

وكانت سوسة ملجأ للبحارة الذين زاحموا بسفنهم أساطيل شعوب أخرى على السيادة بالبحر الابيض المتوسط كنرمـان صقليـة وهم الذين ردوا لنـا الزيارة باحتلال سوسة لمدة أحد عشر عاما فى القرن الثانى عشر ، فعساكر شارلكان الاسبانى الذين أطلقوا أساطيلهم على السواحل التونسية بدءا من

عام 1535 فمنوا بهزيمة أمام شاطىء سوسة عام 1538 ولكنهم وفقوا فى احتلالها بعد عامين ، ثم بحارة البندقية Les Vénitiens الذين قذفوا المدينة بقنابلهم فألحقوا بها خسائر فادحة بين سنة 1784 وسنة 1786 .

هكذا يتجلى الدور العسكرى لسوسة الاسلامية طيلة عديد من القرون لكن المدينة لم تكن أداة حرب فحسب ، فهى الكادحة المنشطة للتبادل المثمر بينها وبين باقى أنحاء البلاد والامم المجاورة ، والشعاب المعمرة لضفاف البحر الابيض المتوسط ، فكانت بالخصوص مركزاً لتبادل البضائع ومرفأ تجاريا هاما بحكم موقعها فى ملتقى الطرقات وانفتاحها على البحر .

انها حاضرة العلم أيضا ، فحلقات الدرس والمذاكرة بها كان ينشطها شيوخ جمعوا بين المعرفة والتقوى كسيدى يحيى بن عمر أحد الاولياء القديسين بالمدينة ومؤلف كتاب « أحكام السوق » وهو كتاب فى الحسبة جمع فيه صاحبه تراتيب الاسواق ونظام المنتصبين فيها للمعاملات التجارية .

وما أبعد ذاك الولى الصالح المستريح بأمان فى ضريحه بالساحة الكبرى وسط المدينة الدراويش المهابيل .

وقد شجع حسن القبول والضيافة المتأصلين منذ عهد بعيد فى سكان المدينة جاليات أجنبية كالصقليين والمالطيين والاسبانيين واليونانيين وطوائف أخرى من سكان ضفاف البحر الابيض المتوسط على الاستقرار بسوسة ـ وشهد بحفاوة الاستقبال وكرم الضيافة عند أهلها الجغرافى العربى ابن حوقل فى القرن الرابع الهجرى « العاشر الميلادى » فى كتابه « صورة الارض » وأكد تلك الشهادة الرحالة يوحناليون الافريقى فى القرن السادس عشر .

واستيحاء من نفس سند كرم الضيافة واستغلالا لموارد موقعها الطبيعى الجميل وللحلاوة الخاصة لمناخها ولثراء تراثها استطاعت سوسة أن تطور طاقة الايواء السياحى وأن تحوُّدِه بعشرة آلاف سرير وفرتها الى حد الآن شبكة نزل حديثة ممتدة على طول الشاطىء بعض الكيلومترات وستتضاعف بمشروع سوسة الشمالية فى آخر المخطط الخامس ، ولذا عدت المدينة من أهم المراكز السياحية .

واتسعت مساحتها فتطورت من ثلاثمائة الى أربعة آلاف هكتار فى مدة قصيرة كما أن عدد سكانها المستقرين بها يقارب اليوم المائة ألف نسمة وربما يتجاوزها دون اعتبار السياح والعابرين والعملة والموظفين من الولاية

الوافدين صباحا من القرى المجاورة وحتى البعيدة كهرقلة للعمل بها ـ وهم ينتفعون بخدمات بلدية سوسة بالنهار ـ ومع الايام تتصنع المدينة وتتخذ مظهر مركز جامعي بكليتها الفتية للطب ومدرستها العليا للملاحة التجارية ودار المعلمين العليا المنتظرة ، وتزدهر بها اليوم التجارة على عادتها .

بيد أن هذا التطور السريع للمدينة وهو ضروري لضمان كرامة سكانها بتوفير الشغل والمسكن لهم يفرض عليها فدية لا تنفصل عادة عن تقدم المستوطنات البشرية ونمائها وتظهر فى المشاكل العديدة المنجرة عن النزوح وكذلك فى مشاكل التهيئة العمرانية وحركة المرور والتطهير والسكن والتجهيز الاساسى والخدمات الاجتماعية المطروحة بحدة أحيانا على أنظار المسؤولين والمستشارين البلديين .

وحرصا منا على ضمان جودة العيش بجوهرة الساحل فانا نبذل قصارى الجهد لايجاد الحلول المناسبة لحل المشاكل القائمة فى حدود امكانياتنا باحداث قرية يحى الزهور للاستجابة للطلبات الملحة المتكاثرة فى السكن ، وبالدراسات المفصلة للاحياء انطلاقا من مثال رئيسى للتهيئة وكذلك باعداد مثال رئيسى لحركة المرور يمكننا من الشروع فى نصب الاشارات الضوئية بسوسة لاول مرة ، وإعداد مثال رئيسى للتطهير منتظر عن قريب ، وبناء قاعة للرياضة نحن بصدد انجاز مثال لها جميل واعداد ملفها الفنى ، واقتناء معدات للقيام بأشغال مباشرة بامكانياتنا ورجالنا ، واحياء حديقة بوجعفر وجلب بعض الحيوانات اليها ، واحداث مناطق خضراء أخرى كالحزام الاخضر المحيط بالاسوار ، وبناء أسواق بالاحياء وادارات للدوائر البلدية ومد القنوات الرئيسية الرابطة بين محطتى تصفية المياه المستعملة وما الى ذلك من الانجازات والخدمات .

كما أننا بصدد التباحث مع الدوائر المسؤولة فى مشاريع أساسية أخرى كتحويل خط السكك الحديدية والمنعرج المزمع احداثه للطريق الرئيسية رقم واحد ونقل الشكنات وتوسيع الميناء فى اتجاه الجنوب قرب المنطقة الصناعية .

وعلى الصعيد الادارى أدخلنا الاعلامية الآلية على مصالحنا فيما يتعلق بأجور العمال والموظفين والاداءات على القيمة الكرائية ومسك الحسابات ومراقبة الميزانية وادارة المخزونات ريثما نتهيأ للاعلامية الالكترونية فى سنة 1980

وبالاضافة الى مظاهر هذه الحياة البلدية الحديثة يأتى اهتمامنا بصيانة ~~بصيانة~~ المدينة العتيقة بوجه خاص اذ نحن حريصون كل الحرص على حفظ

مآثرها ومناخها الاجتماعي والثقافي والاقتصادي والديني وصيانة معالمها النفيسة من التلاشي والخراب والتشويه .

وقد أسسنا لهذه الغاية جمعية ستسهر على تلك الرعاية الضرورية الباهضة التكاليف واتخذنا مقرا لها في المعلم الاثري زاوية الزقاق .

ولئن كانت سوسة الحديثة محتفظة بالعديد من ميزاتها الموروثة عن الاصول البونيقية وعن العصور الرومانية والبيزنطية التي نسترجعها بقراءتنا وزياراتنا للمتحف والدواميس ، فانها فخورة بانتمائها الى الحضارة العربية الاسلامية .

ولا تزال شواهد المجد العربي ماثلة للابصار في العديد من المآثر الرائعة التي تزين المدينة العتيقة ؛ وبعض تلك المعالم لا يزال حتى يومنا هذا وظيفيا يعج بالحركة وينبض بالحياة كالمسجد الكبير .

ولو لا أن العديد من تلك المعالم بني بالصخر المنحوت لما غالبت الزمن وصمدت شامخة أوان الاحتلال الالماني للقذف الجوي المكثف في سنة 1942 وفي أوائل سنة 1943 كما تستحضره ذاكرتي الذائبة بمرور الزمن من عهد الصبا الاول حينما كنت أروع بالقلاع الطائرة التي تفرغ حمولات قنابلها كيفما صدف في حين كان هدفها الميناء المطل على الساحة الكبرى حذو أسوار سوسة بالجنوب الشرقي .

لقد أصيبت مدينتي الشهيدة في الصميم ولم يتسن لها استرداد أنفاسها الا في أواخر الاربعينات ولا تزال مخلفات الانفجارات تمثل للاسف الشديد حتى يومنا هذا مبعث خطر كامن في تسرب المياه من الآبار والصهاريج المصدوعة فتتسبب في ترييحات وارتخاءات أرضية معجلة بدمار الدويرات المتحوفة ومهددة على المدى القريب والبعيد عديدا من الاحياء المتداعية للسقوط بالمدينة كنهج الاغالبة وهو المسنى مثلما ألفنا من عهد الصبا تسمية تلك السكة .

ولئن تم ترميم العديد من المعالم والمباني فان العدد العديد من مثيلاتها الاخرى قد طمست أعلامها وغيرها البلى فصارت موحشة بعد الانس وخرائب بعد الحسن ومآوى للدواجن ومراعي للاغنام كمسجد سيدي الكيلاني ومسجد الخصيبي ـ وما امتدت بعد لتلك المعالم يد الرعاية بسبب قلة الامكانيات المادية وعدم توفر الدراسات الفنية ـ غير أنا جادون في ايجادها شيئا فشيئا ومعولون أيضا في توفيرها على تحمس أبناء هذه التربة الزكية ومواليد المدينة الساحرة جوهرة الساحل وأحبائها أبناء الجهة ومسؤوليها وغيرهم من رعاة المعالم الاثرية .

انها لساحرة لعينيك فتبصرها بالمهجة والمقلة - فحيثما أدرت نظرك فى الابنية والمآثر العتيقة بمدينة سوسة طالعتك دقة التناسق وجودة الانسجام وروعة الفن المعمارى الاسلامى فى عفوية جماله متجلية بوضوح فى المسجد الكبير الذى تحدثك جدرانه بأمجاد الاسلام مذ عهد الامير أبى العباس محمد بن الاغلب منشئه فى سنة مائتين وست وثلاثين (236) للهجرة بشكله الهندسى الطريف بلا صومعة على غرار المسجد النبوى الاول بالمدينة المنورة فيوحى لك المسجد الكبير بالهدوء والامن والسلام والخشوع .

والقصبة المطلة على المدى البعيد برا وبحرا ببرج خلفها المركب من هرمين مزدوجين فى طبقين متعاقبين تتمتع بمشهد فريد .

والرباط - أحبب به من رباط - يعد بحق من أندر الحصون وأبهى القلاع الساحلية فلا يزال - أدامه الله - قائما شامخا فى بساطة ساحرة يتحدى الزمان ، وهو تحفة فنية رائعة قابعة فى أدراج فن الهندسة المعمارية تزين المدينة وتعد لك مفخرة - فهذا الرباط يحدثك - لو أصغيت الى همسه - عن العباد المتبتلين من جنود الله الذين تحصنوا به للذود عن دار الاسلام وانطلقوا منه فى سفنهم الحربية الى صقلية ومالطة وقوصرة « بونتلارية » وقسم من جنوبى ايطاليا « قلورية » « الكلابر » لاعلاء كلمة الله .

هذا بالاضافة الى متاهات الازقة ونعومة أضواء الاروقة المقببة بالاسواق وجمال السور الحزامى للمدينة ، الى جانب العديد من التحف المعمارية التى لا يستطيع الزائر أن يبقى جامد الاحساس تجاه مفاتنها ، فتذكره بأن الماضى الاسلامى المجيد لا يزال حيا نابضا عابقا بأنفاسه فى أرجاء مدينة باتت لكل ذى نفس طلعة ينبوعا دافقا لا ينضب .

ان سوسة أرض الانسجام والتناسق وأرض اللقاءات المتعاقبة والحضارات المتلاحقة ظلت لمدة أربعة عشر قرنا وطوال الحضور الاستعمارى الفرنسى بها على ما تميز به من محاولات المسخ لتراثنا وشخصيتنا وفية للتقاليد العربية الاسلامية بدون أن تتخلى لحظة واحدة عن قدرها المتمثل فى أرض لقاءات تستوعب الحضارات القديمة وتتفتح على الحياة العصرية وتستجيب لمقتضيات التطور .

تلك هى مدينتى ساحرتى أحببتها ملء جوارحى فصورتها وهى ماثلة لك فى لوحات من وحى التاريخ والواقع وحلم المستقبل بمشاعرى الدافقة لتحبها وتصونها ، فهى بالرعاية والانقاذ جديرة وبخدمة أهلها ومحبيها حرية .

أحمد خالد

.. يا عُشاق الفعل الأخضر !

شعر : الصادق شرف
(أبو وجدان)

من الصعب أن نبدأ الفعل الاخضر ،
ومن الاصعب أن نواصل ما بدأنـا .

(١) اجماعا .. على الأصعب ..

حتى تنزح عن غبش الرؤية .. حتى تلج القمة فى الفعل الأخضر ..

لا تعصب رأسك يا عربى الأمشاج ، فجرحك أولى ، جرحك أولى ، جرحك من رأسك أكبر ..

يا رجلا لا أخشى أن تحرق جبهته الشمس ، ولكن أخشى أن يحرق رؤيتـه الظل الوردى ..

يا رجلا لم يحرق بالشمس ولا بالطمس ، ولا بالنار ولا بالثار ولكن حـرقته عصابات الفعل الفردى ..

واتفق الفعل الفردى مع الاجماع على أن لا يتفق الأفراد ..
يا رجلا نفطى الوجه ، ونفطى الأحلام ، ونفطى الميلاد ..

ما خفت عليك من الدفن ، ولكن خفت على طفلك أن ينسى انه والتـاريخ على ميعاد ..

الساعة دقت ، هل يلج الطفل الساعة فى تاريخ الجرح ، ولو من نفق الأرض المشطوره ؟

فدعوه يفصل عن ظهـره ذروة أوهام العـودة حتى يخـرج للعـالم من عنـق القاروره ..

الطفل تضخم فى الداخل من كبد الشوق الى الفوق ، تعجف فى الخارج من زرع الرئة المشطوره ..

تنشطر الرؤية في الرأس الواحد بين العينين ، فيكتمل النقص من الزائد ..

الواحد زائد كل الأرقام ، فمن قال بأن الصفر غدا لا يصبح للارقام هو الزائد.؟

البرعم ملفوف ، صلب ، أخضر ، كالشيء القاسي ، ما إن يتفتح حتى يورق أزهارا يتضوع في النار كما العنبر ..

وتسافر أشذاء البرعم من نقص الرؤيات على غيم الاجماع فيبتدىء الفعل الأخضر ..

هلا يلج الفعل الأخضر في برعمنا ؟ ما زال ولوج الفعل الأخضر في الهيكل ما زال هو الأخطر .!

* * *

(2) جيل القطيعة قربان ..

هناك على ضفة النيل كان الجمال يلغم حقل العروبة بالبذر كان ..

وجوهر كان يشجر بالصوت سمع السنابل ، أسمر كان ..

وكان الحمام يعشش بين المواويل ..

يهدل باسم أريحة عند الرحيل ..

ومصر التي قد تشعب فيها نخيل التحدى ، تدفق فيها سحاب السلام لنسف عراجين طلع النخيل ..

كما المجد كانت تطاول حتى الصمود نهار القريعه ..

وجاء مع الليل قطاع بيض الحمام ، أتاحوا الى البوم أن ينسف العش والبيض باسم الطبيعه ..

ستأتى مواسم للحصد لا تعرف الله قبل الفجيعه ..

ولا تعرف النيل قبل انتفاء الحدود ، تصادر فصلا يحاصر خلف الثلوج ربيعه ..

وخاف الضباب حدود تفصل بين الحمام وبيضه .. بين الجمال وشعبه ..

تفصل جوهر عن صوته العربي ! ويفصل - بين العروس التى قدمتها الى النيل والنيل - جيل القطيعه ..

وما زال للنيل شوق ينادى : العروس العروس فهودج للنيل كافور شعبك يا مصر قربان سلم ! وما هودج الآخرون لسلمك يا مصر غير الوعود الفظيعه ..

ونحلم بالوعد حتى الوعيد ، ويحجم أن يركب المهر حلم السياده ..
وعشش فى جمجمات القطيعة شعب من الرفض ، همهم دون ارتكاب هجوم على موسم الانتظار ، هو الانتظار لقد أصبح اليوم عاده ..
ركبنا وما ركب القائد ـ الفرد إلا على صهوة من سلاح تخشب فيه حراك الاراده ..
ترابك يا مصر ينقف فينا كبيض الحمام ، وهذا الحمام صغيرا على أيكة الحب حط ، استراح ، فحطت على صدره دولة من بنوك التحول للشرق فى شكل دبابة قد تطور فيها دماغ القياده ..
ولكن بدت لا تقاد ، ولكن تقودك يا عربيا لاعلان وجه انتفاضك نحو الخطوط فلا تتخلف فلست المقاد ، فانت نفوذ اذا الشعب قاده ..
هى الحرب تقفز من ذيل قط تمطى على ركبة الملينير وأعلن أنه أصل سلالة كل الأسود ..
فلو بسط القط خيشومه فى النقود ، ونام يغط ، ويحلم بالفأر نط ، لقام ينط وراءه ، لاجتاز .. يجتاز خلفه جحر السدود ..
فمن قال : يستاسد القط ، قال : تقطط فار السقيفة ، حتى اذا التقيا فى السقيفة كل الى أصله سيعود ..

* * *

فلا ترجم الغيب يا زعفران بصفرة وجهك قبل حلول الوسيط ..
وحل الوسيط ليلعب بين الخليج ـ المحيط وبين اللقيط ..
وبين خياشيم قط تجاوز فى العار حد الغطيط ..
وبين عروض تقدم للشعب فى شاشة الوهم طول الشريط وعرض الشريط ولكن على عكس عمق الشريط ..
محيط بدون خليج لقيط ، لقيط خليج بدون محيط ..

* * *

(3) يا ابن خلدون .. هذى المقدمة ، فأين الصميم !؟

دعينى أطبطب على رأس جدك يا ساحة الاحتضان ..
ألا يا ابن خلدون كيف نعرب هذى المقدمة ؟ الجمع يطلب منا كتابة ما قد تبقى..
فهل نكتب اليوم ـ فعل ـ الاضافه ؟

وهل سنمثل دورا يحرر تاريخنا من مدار الخرافه .؟

* * *

(4) الهجرة متصلة جديدة !

متى يا مضخات نفط الجنوب تضخين داخل شريان أمتنا ما يخالف فى الضخ جود الخلافه ؟

هو الضخ أخضر ، يبدأ من سرة المجد ، يصنع مستقبلا لا يعيد الى الباب قومى بكف التسول .. لكن يجيء .. نجيء لنصنع للقفل بابا .. ونصنع للباب حلقة دق .. ونصنع للحلاقة الكف .. والكف هل تستطيع سوى الدق ؟ والدق وحده هل يستطيع (لفتح) الحصار سبيلا ؟

ولكن ، هو الدق حين استحال الى همة تتجاوز طوقا ، وتجتاز بالأمة المستحيلا ..

أتبقى المجاعة فى بنك شعبى ؟ وتتخم بالعرق العربى البنوك طويلا ..؟

وطال انتظار الشعوب ، وكم تنبع الارض منا لتنصب خارجنا سلسبيلا !!

دماء ، صدورا ، عقولا ، جباها .. فلا الدم فار ، ولا الصدر ثار ، ولا العقل كف عن الهجرة ..

يدى .! وايداه ! بماذا سأمسح يا عرقا باردا يتصبب من جبهتى .!؟
فما اقبح الواو من شاعر أكثر القوم كفرا بواو التاسف والندبة .!
وما أطول الهم فى أمتى .!
وما أقصر الفعل فى قمتى .!
وما أوسع الحلم فى همتى .!
ولكن همك يا أمتى .. كل همك يا أمتى ..

تهادن فى الجسم بعض اللصوص .. تهادن كل الرؤوس .. تهادن ضعف النفوس ..

وها هب غيلان فى الفجر ــ زاجر حلم الشعوب ، فقلها : هى الهمة ــ الدفق ترفض حلما جميلا ..

تقاطع جمعا اذا اخضر من جيمه ، ميمه فى انغلاق قديم ، متى تطرح العيـن فينا البديلا ؟!

هل الجمع لم ينسلخ بعد عما يحيكه كافور ؟ مهلا ، غدا حينما تسلخ الارض ميلا فميلا ..

أيرتفع القائد الهرمى على شظف الشعب دينا ثقيلا ؟ ليصبح حتى الكثير قليلا ..

* * *

(5) الأب والأم .. فأين الوليد ؟

دمى العربى يغذى شرايين غيرى ، وعند الجراحة تبقى شـرايين رؤيتنـا فى فـراغ ..

كانك يا وطنى العربى ورثت عن الوالدين كيانا يناغى بغير دماغ ..

ولكننى أعرف الأم كانت هى الراس ..

والأب كان هو القدس ..

لا تلد النار غير الرماد اذا لم نكن نحن فيها الصفائح تحمى ، فتحمر ، تخضر بالفعل ، تطرق ، تطلق منها شرارا جبالا تحرك ، إنـا نكـون الى معطيات اللهيب انبثاقا ..

فهل نقبع الدهر حيث الجنود قعود ، على شارة الانتماء الى البرد شدوا الوثاقا؟ فمن ذا الذى سيطهم ساحاتنا بالخيـول ؟ ومن سيقـوم بتجنيـج كل الخيـول سروجا عراقا ؟

لها الفارس العربى مع الدخلاء يخوض السباقا ..

ولا شىء بعد انتصاب السروج سيركب زورك يا مهرنا العربى سوى من صنعناه يركب للصدق ..

يركب للعدل ..

يركب للحق ..

يركب للبذل ..

يركب فينا براقا ..

الصادق شرف (أبو وجدان)

1979 / 10 / 5

صالح سويسي القيرواني

بقلم : مصطفى الحبيب بحري

عبقرية عصامية :

هو شاعر لم يتتلمذ على أستاذ ولم يضمه مجلس درس ولم يثقفه غير عالمه الذى خلقه لنفسه فعاش فيه حياته محلقا بين أجوائه الزاخرة بالعواطف ، الفياضة بالأحاسيس الجياشة بالمشاعر .

انه صالح سويسي القيرواني الذى ولد سنة 1878 م. بمدينة القيروان واستطاع أن يخلد ذكره ـ بفضل عصاميته ـ فى سجل الادب العربى بتونس وأن يساهم فى بعث الشعور الوطنى بين مواطنيه مما دفع الاستاذ زين العابدين السنوسى الى أن يقول عنه :

« هو أديب القيروان وحامل راية بيانها طيلة هذا الربع قرن الماضى ...

لقد شب أديبا واكتهل محترفا مهنة الادب برغم صعابها وما حفها الزمان به من ضيق اذ سحر مماشيها المسلوكة بما عبده حذوها من الطريق الرحبة المهودة الباذخة » .

هذا ما شهد به له الاستاذ السنوسى فى كتابه (الأدب التونسى فى القرن الرابع عشر) أما شهادة الاستاذ محمد الفاضل بن عاشور فانها لا تقل دلالة على نبوغه وعبقريته وها هو يقول فى كتابه (أركان النهضة الأدبية بتونس):

« إن هذا الرجل الذى نعده نحن ـ وقد عده الناس قبلنا ـ ركنا من أركان النهضة الأدبية وعلما من أعلام الاصلاح الدينى

والفكرى وموجها من موجهى الشعر الى أسمى مراقيه فى تصوير الحياة القومية الفكرية هو رجل لا يعد من المتعلمين لأنه لم يزاول دراسة منظمة ولا انتسب الى معهد علمي ومع ذلك استطاع أن يبرز من خوالد الأفكار والآداب ما كان منارا للعلماء ومادة لتغذية النتاج الأدبى الرفيع » .

لا مجال ازاء هاتين الشهادتين الى الشك فى نبوغ الشاعر وعبقريته . ولكن الا يدفعنا الأمر الى التساؤل عن الاسباب التى هيأت له سبيل هذا النبوغ وتلك العبقرية ؟

طبعا لا أحد يتصور أن تكون هذه الثقافة قد نزلت عليه من السماء فلا بد اذن أن تكون لها مصادرها واذا لم تكن هذه المصادر مجالس الأساتذة وقاعات الدرس ، فلا بد أن تكون كتب المطالعة المختلفة ، فهى التى ثقفته وصقلت مواهبه وكانت هى أحد الأسباب التى هيأت له سبيل النبوغ والعبقرية ومما يؤكد على ذلك ما ذكره الأستاذ محمد الحليوى فى كتابه (فى الأدب التونسى) اذ يقول :

« ان الشيخ صالحا كان من كبار القراء فيندر أن يسمع بكتاب جديد أو مجلة ، ولا يعمل جهده ليحصل عليها ويطالعها . وكان يكتب الى أحبابه الكثيرين من عمال ومتوظفين طالبا امداده بما عندهم من الصحف والمجلات فيمدونه بها عن طيب خاطر . وكان يقيد ما يروقه من هاته المطالعة فى دفاتر أسماها (سفينة نوح) قد بلغت بضعة أجزاء ولا أبالغ اذا قلت ان جل ما أخرجته المطابع بمصر والشرق منذ أربعين سنة قد قرأه الشيخ وأفاد منه » .

إن عقلا يستوعب مثل هذه الآثار لا بد أن تكون له الطاقة القوية على الادراك . ومتى كان الادراك كان الانشاء والخلق ولذلك فنحن لا نعجب من تأدب الشيخ الشاعر رغم عدم تربعه فى مجالس الدروس التقليدية . والاستاذ الحليوى يورد عنه شيئا آخر ربما كان له اتصال بالسبب الماضى وربما أمكن لنا أن نعده سببا مستقلا وهو أن الشاعر كان يلم بالكثير من الحكايات والأشعار ويحفظها ، وكانت له حافظة زاخرة بالذخيرة تفتح لها قلبه وانطلق بها لسانه وتهيأ له بها أن يستميل القلوب ويمتلك المشاعر .

يقول الأستاذ الحليوى :

« وكان رحمه الله يحفظ الشيء الكثير من الحكايات والأشعار التى فيها ايقاظ للهمم وشد للعزائم فكان يوردها فى حديثه بلا حساب ويكسوها من حيوية نفسه وفصاحة لسانه ما يقربها الى القلوب ويشوق النفوس لسماعها ، فتعمل فى مستمعيها ما لا تعمله الخطب الطويلة والمواعظ الأنيقة » .

ثم لا بد أن يكون للمجتمع القيروانى تأثيره على نفس الشاعر وثقافته وتفتح شاعريته فالمعروف عن القيروان أنها كانت منذ عصور الفتح الاولى موطن العلم والأدب فى افريقيا . وقد نبغ الكثيرون من أبنائها عبر الأجيال المختلفة . وفى عصر الشاعر كانت الأسمار الأدبية وكانت النوادى وكان التلاقح الفكرى ، وقد تجمع التراث التاريخى مع الوجود الحاضر فى جعل الشاعر ينصرف الى التيار الأدبى ينهل منه ويدر عليه بانتاجه .

ولعل الأهم فى الوجود الحاضر أن الجهل كان يخيم عليه وان التأخر كان يغلل خطواته وقد لاحظ الشاعر الفارق بين الوجود الزاهر للقيروان فى القديم وبين الوجود المؤلم الذى أصبحت تعيشه من ناحية ، وبين تقدم الغرب وتأخرها هى من ناحية أخرى فكان لكل ذلك أثره فى ايقاظ مشاعره واثارة عواطفه واطلاق لسانه ، وقد قال فى بعض ذلك الأستاذ محمد الفاضل بن عاشور :

« ... فقد نشأ فى مدينة القيروان يستلهم من معالمها وآيات عظمتها الباهرة وذكريات المجد الاسلامى التى تملأ جوها النير المعبق موقظات للحس الباطنى ومحركات لرواكد العزائم والهمم » .

وفى البعض الآخر من ذلك يقول الاستاذ محمد الحليوى مشيرا الى مكانة القيروان وتأثيرها فيه :

« ألم تكن عاصمة من عواصم الاسلام الكبرى ؟ أو لم يكن لها تأثير فى مصائر افريقيا وتحكم فى مجري التاريخ الاسلامى ؟ أليست المعالم والآثار والمعاهد التى تركها الأسلاف بالقيروان توحى الى ضمير الرجل المستنير بشيء من المسؤولية أمام التاريخ وتدعوه الى أن يعمل فى أبناء قومه على بعث اليقظة والشعور لاسترجاع العزة المفقودة واحياء المجد الداثر ومجاراة

أمم الشرق فى التطور والنهوض والأخذ بأسباب الثقافة العصرية التى تضمن لها حياة العزة والكرامة ؟ »

وقد كان الشاعر السويسى الرجل المستنير فسعى الى انارة الطريق أمام أبناء مجتمعه باستفزاز مشاعرهم واثارةحميتهم ودعوتهم الى العمل من أجل استرجاع العزة والمجد مما سنلاحظه فى آثاره خاصة منها الاجتماعية .

ألـوان ومـؤثـرات :

لقد عالج الاديب القيروانى صالح سويسى نظم الشعر وكتابة القصة والمقالات . ولكنه كان فى عالم الشعر أحذق منه فى غيره وفى الشعر الاجتماعى أروع منه فى ألوان الشعر الأخرى .

وحتى تكون لنا فكرة ولو عامة عن مختلف انتاجه يمكن أن نشير أولا الى آثاره النثرية وخاصة الى روايته (الهيفاء وسراج الليل) وبعض الآثار الأخرى التى صاغها فى قالب مقالات .

لقد صور فى روايته حياة شاب نشأ على الفطرة وحين ارتحل الى المدينة لطلب العلم لاحظ تقصير العلماء فى محاربة البدع والفساد فأخذ يبدى تعجبه من موقف العلماء السلبى ... وباختصار يمكن أن نصف هذه الرواية بأنها رواية اجتماعية لا تكاد تختلف فى اتجاهها عن مقالاته وقصائده . وقد قال عنها الأستاذ محمد الفاضل بن عاشور :

« فى سنة ألف وثلاثمائة وأربع وعشرين ، نوهت الصحف بأن شاعر القيروان صالح سويسى قد ألف رواية أدبية انتقادية اجتماعية سماها رواية (الهيفاء وسراج الليل) فكانت رواية الهيفاء وسراج الليل أول رواية ظهرت فى تاريخ الأدب العربى بتونس . وهى وان كانت مقامة على هيكل القصة البسيطة ضعيفة العقدة الروائية الا أن أولويتها من جهة وابتناءها على فكرة الاصلاح من جهة أخرى يمكن لها منزلة مهمة فى تاريخ الفكر وتأسيس نهضة الادب » .

هذا ما قاله الأستاذ ابن عاشور ومثله يمكن أن نطلقه على المقالات فهى بالرغم من ضعف صياغتها تعالج مواضيع قومية واجتماعية وقد ضم الديوان (زفرات الضمير) أربع عشرة مقالة استغرقت ما يقارب ستا وثلاثين صفحة

وهنا تجدر الاشارة الى أن ما تناوله سويسى فى آثاره سواء كانت نثرية أو شعرية يتصل اتصالا وثيقا بالجانب القومى الاجتماعى ، مما يدفعنا الى التساؤل عن الأسباب التى دفعته الى أن يتجه هذه الوجهة خاصة وشعراء عصره فى عمومهم لم يكونوا يعالجون فى آثارهم غير الأغراض التقليدية من مدح ورثاء وغزل وعتاب وتهان وما اليها .

والواقع أن الوجود الذى كان الشاعر يعاصره لم يكن الشعب فيه قد تنبه الى الأمراض التى تنخر جسمه اذ لم يكن قد أفاق بعد من صدمة الاحتلال ، واذ لم يوجد المصلح الذى يمكن أن يخلصه من براثن أغلاله . وقد لاحظ صالح سويسى ذلك وأدرك أن خلاص شعبه لا يتم الا متى تهيأ لايقاظه وإصلاحه مفكرون ينيرون له الطريق ويرشدونه الى مسالك النهضة . وعلى ذلك يكون الوجود الاجتماعى نفسه أحد الأسباب التى دفعته الى معالجة القضايا الاجتماعية ، فاذا أضفنا الى هذا العامل عاملا آخر هو اتصال الشاعر بمختلف الطبقات الشعبية أمكن لنا أن ندرك كيف سهل عليه أن يتعرف على مشاكلها والعوائق التى كانت تصدها عن التقدم والرقى . وقد قال الأستاذ محمد الحليوى متحدثا عن هذه الخاصة فيه :

« يمتاز الشيخ صالح ـ رحمه الله ـ بأنه الأديب الوحيد الذى استطاع أن يختلط بجميع طبقات الشعب ، وأنه الأديب الوحيد الذى استطاع أن يفوز بحب الناس جميعا ، وكان فى اختلاطه بكل الطبقات يعمل عمل المصلحين المرشدين فهو لا ينى ـ فى كل موطن ـ عن التذكير بما كان عليه السلف الصالح من الاستقامة والغيرة والحرص على طلب العلم والقيام باجراء العدل وخدمة الدين » .

ثم إن من بين الأسباب التى دفعته الى هذا الاتجاه الاجتماعى اتصاله بالشيخ المصلح محمد النخلى الذى كان مواظبا على حضور مجالسه لا ينقطع عنها وقد قال الشيخ محمد الفاضل عن هذه الصلة الوثقى التى تجمع بين الأديب وبين الشيخ المصلح :

« كان مترجمنا صالح سويسى .... يقبل على مجالس الشيخ فى لهفة ويطلب منه أن يعقد مجالس للدرس لا ينقطع عن شهودها حتى أصبحت دعوة الشيخ محمد عبده متعة روحه وذكر الشيخ النخلى ـ لمقامه منها ـ سلواه وعدة ضميره

الاصلاحى . ففاض شعره ونثره بهذا الوجدان الذى أصبح مسيطرا على نتاجه ومؤثرا فى نتاج الأدباء من حوله ومن بعده » .

وعلى ذكر الشيخ محمد عبده يتوجب علينا أن نشير الى عامل آخر ، هو مقارنته بين الواقع التونسى الراكد وبين الواقع المشرقى الذى بدأت طلائع النهضة تشرق فى سمائه فقد كان الشاعر كما ذكرنا سابقا منكبا على دراسة الآثار المشرقية وقد كان أيضا كما قال الاستاذ الحليوى على صلة كبرى مع زعماء النهضة فى بلاد المشرق وها هو يقول فى هذا المجال :

« وكان الشيخ صالح ـ رحمه الله ـ من ابرز هؤلاء الأفراد القليلين الذين أولعوا بمطالعة ما يكتبه أعلام النهضة الاسلامية فى ذلك الوقت من أمثال جمال الدين الأفغانى والشيخ محمد عبده وتلامذتهما وهم سعد زغلول والمنفلوطى وشكيب أرسلان ومحمد رشيد رضا والشيخ على يوسف صاحب جريدة (المؤيد) التى كانت أفسح ميدان لنشر آراء هؤلاء الكتاب والمفكرين . وفى مدرسة (المؤيد) تخرج الشيخ صالح سويسى وبدعوة الأفغانى ومحمد عبده وتلامذتهما تأثر ، وبهدى أفكارهم اهتدى ، وعن وحيهم صدر وعلى غرارهم ضرب ، ومن أسلوبهم اقتبس » .

وكما كان الشاعر يقارن بين الوجود التونسى فى خموله وجموده وبين الوجود المشرقى فى حركيته ومحاولته النهوض ، كان يقارن أيضا بين الوجود العربى عامة وبين الوجود الغربى وهذا ما نلمسه كثيرا فى شعره كما سنتبين .

وهكذا يمكن أن نقول باختصار إن العوامل التى دفعت الشاعر الى أن يهتم بالوجود الاجتماعى تتمثل فى اختلاطه بطبقات الشعب وتعرفه على أدواتها خاصة حين المقارنة بين وجودها وبين الوجود العربى المشرقى أو الغربى ، كما تتمثل فى تأثره بآراء الشيخ محمد النخلى بتونس وجمال الدين الأفغانى ومحمد عبده وتلامذتهما بالمشرق . فهذه المؤثرات هى التى صبغت عموم شعره بالصبغة الاجتماعية حتى قال فى ذلك الأستاذ محمد الفاضل بن عاشور :

« كانت غايته من الشعر فى عامة مراحل حياته هى تلك الغاية الاصلاحية فكان لسان الاحساس القومى والنهضة

الفكرية ، وكان شعره ينزع أحيانا نحو الاطمئنـان الى الخيـر فيفارق السخط على الحياة والتبرم بها عندما تلوح له بادرة من بوادر العمل الجدى فى سبيل النهضة والاصلاح » .

حـامـل الـرايـة الاصـلاحيـة :

قبل أن نحاول التعرف على المواضيع التى كان الشاعر قد عالجها وقبل أن نحاول استعراض بعض الشواهد عليها أرى أن نشير ولو بايجاز الى العصر الأدبى الذى كان قد عاشه ، اذ لا يتسنى لنا أن نحل أى أديـب المكانة التى يستحقها ما لم نتعرف على الحياة الأدبية فى عصره ومـدى مـا ساهم به فى تكوينها أو تجديدها وتطويرها .

كان الشعر يعانى مأساة جموده وتحجره ، لا يكاد يخـرج عن المـواضيع التقليدية التى أغرق فى تناولها شعراء عصر الانحطـاط الى أن كان الشـاعر صالح سويسى فحاول الخروج به ـ ومعه نخبة من الشعراء المعاصرين لـه ـ الى عالم النور والتحرر ليجعلوه معبرا عن الاحساس الدينى القـومى ومنـارا يهدى التائهين الى طريق الرشاد والخير ووضعوا له اسما مميزا هـو اسـم (الشعر العصرى) وهى تسمية أخذوها عن أدباء الشرق الذين أطلقوها على شعر الاجتماع والحكمة والدعوة الى النهوض والمجد . وقد قال الاستاذ محمد الفاضل بن عاشور فى كتابه (الحركة الادبية والفكرية فى تونس) متحدثا عن هذا الشعر العصرى وعن معالجة الشاعر سويسى لأبوابه :

« ابتدأت الصحافة الشرقية تطلق هذا اللقب على الشعر الاجتماعى والحكمى لا سيما الذى يقصد الى التذكيـر بالمجـد والتوجيه الى مسالك النهضة والتحرر والتجدد ...

وتلقف تلك الطريقة شاعر القيروان صـالح سـويسى .. فبدأ يتغنى بالقصائد المتوالية فى التنديد بسـوء حـال الأمة الاسلامية والفرق الواضح بين عظمة ماضيها وحقارة حاضرها. فكانت انغامه كلها تحرقـا وعويـلا ، يظهـران من عنـاوين قصائده ... فكـان بذلك حـامل رايـة الشعـر الاصـلاحى التجديدى .. » .

وهكذا ، ومن خلال هذا القول يمكن أن نتوصل الى معرفة بعض الأغراض التى كان الشاعر يركز عليها دعوته وعمومها يتصل بالوجه الاجتماعى :

من أبرز هذه الأغراض الدعوة الى طلب العلم ، وهو غرض كان بعض شعراء المشرق والشعراء الذين عاصروه قد تناولوه .

ومن تناول الشاعر لهذه الأغراض يمكن أن ندرك أن الجهل كان متفشيا وأن تفشيه كان أحد الأسباب التى أدت الى تأخر الشعب واستعباده . والشاعر كثيرا ما كان يلجأ الى المقارنة بين الواقع الزاهر الذى كان المسلمون يعيشونه وبين الحاضر المر الذى أصبحوا يحيونه أو بين الواقع الاسلامى بتونس الذى خيم عليه الجهل وبين الواقع الغربى الذى سما الى الأوج بعلومه ومعارفه . يقول فى قصيدته (الى بنى وطنى) موازنا بين ماضينا المجيد وحاضرنا المؤلم :

أفيقوا يا بنى وطنى المعلى　فقد طالت بكم سنة الرقاد
أفيقوا واذكروا تاريخ مجد　لآباء لهم بيض الايادى
فقد كانوا ذوى عزم وحزم　وعلم قد أضاء على البلاد
وهم عمروا وساسوا الملك حقا　سياسة قائد سلس القياد
فدان الناس وامتثلوا وطاعوا　وفاؤوا للتمدن والرشاد
وهم عرفوا العلوم ودونوها　وهم ملأوا بعلمهم البوادى
فمالى لا أرى الا بقايا　كساها الحزن أثواب الحداد
تغيرت البلاد ومن عليها　ودون رجوعنا خرط القتاد
تلبد فى أفاق الفكر جهل　فأوجب كل شر فى العباد

ويتعرض الشاعر فى القصيدة نفسها الى الموازنة بين الواقع الغربى وواقعنا فيقول :

سواكم فاز بالقدح المعلى　وأنتم ، مالكم حلفا الرقاد ؟
مدارسهم أوانس من علوم　ترقى النوع والمقصود بادى
صحائفهم صفائح للأعادى　وعائد وصلة لذوى الوداد
مجالسهم تدور على صلاح　عمومى مقررة المبادى
ونحن على النقيض أليس نحسا　بطالعنا وميلا عن رشاد ؟

والواقع أن محاربة الشاعر للجهل ودعوته الى العلم كانتا قد ملكتا عليه مشاعره ومن ذلك تضمنتهما مواطن كثيرة من قصائده وقد أدرك الاستاذ محمد الحليوى هذه الحقيقة فعمد الى ابرازها مستشهدا بمقتطفات من آثار الشاعر . وكان من بين ما سجله فى هذا المجال قوله ضمن كتابه (فى الأدب التونسى):

« يجب على المصلح أن يدعو قومه للنهوض من سباتهم فاذا فتحوا عيونهم وتحركوا وقالوا كيف تريد منا أن ننهض ؟ وما هى وسائل هذ النهوض الذى تزعج نومنا بالدعوة اليه عرض عليهم برنامجه الاصلاحى فى حرارة وايمان » .

وبرنامج الشيخ صالح الذى عرضه على بنى وطنه برنامج بسيط لا تعقيد فيه ولا تشعب ، فهو يريد أولا الاقبال على العلوم خصوصا العصرية منها ومجاراة الأمم التى غلبت بالعلم وسادت به غيرها من الشعوب ... والعلم هو سبب التقدم وبه تتم السيادة والعزة :

هيا أنتصـوا لى فانى ابن موطنكم ... لا أشتكى أبـدا فى نصحكم تعبـا

هيا املأوا من علوم العصر حافظة ... فبالعلـوم ينـال المـرء مـا طلبـا

انى افتكـرت لـداع فى تأخـركم ... فلم أجد غير نبذ العلـم لى سببـا

قد ساد غيركم بالعلم واجتهـدوا ... وحصلوا من فنون العلم ما نضبـا

آفـاق قـوميـة :

الى جانب اهتمام الشاعر بالدعوة الى العلم كان اهتمـامه بأهـم مقومـات القومية ، ومنها وحدة التاريخ ووحدة اللغة ووحدة الدين ووحدة الاحساس ، وكلها قد نالت حظها من اهتمام الشاعر وكان لها انعكاس كبير على شعره .

فمن وحدة التاريخ تجد القصائد الكثيرة التى تحاول ربط الماضى بالحاضر وذلك عن طريق التذكير بأمجاد الماضى والحث على التخلص من ذل الحاضر . وفى هذا المجال يقول الاستاذ الحليوى :

« هاته الدعوة الى النهوض واليقظة تـراها هكذا فى أغلب شعره تعتمد على حجج مقتبسة من التاريخ ومن عظمـة الأمـة الاسلامية فلماذا لا ننهض ونحن ورثة مدنية عظيمة ومستودع تاريخ حافل بالعظائم ؟ ولمـاذا لا ننهض والـدين الاسلامى لا يمكن أن يتدين به قوم أموات لأنه ديـن يقـوم على عنـاصر

ومبادىء تبعث فى النفس حيوية وعزة وكرامة لا تتفق مع هذا الموت الأدبى الذى يراه الشاعر فى أبناء قومه ؟ » .

هذه هى شهادة الاستاذ الحليوى فى موقف الشاعر من حاضر قومه بالمقارنة بينه وبين ماضيهم . ومن بين الابيات التى أوردها فى استشهاده هذا المقطع من قصيدة (يا أمة القرآن) :

يا أيها الأحرار هبوا فانظروا ما قد حوى قرآننا وتدبروا
قد جاء فى آياته : ان تنصروا .. قوموا اعملوا بأوامر الديان

هيا انهضى يا أمة القرآن

ومن قصيدة أخرى بعنوان (ما آن أن تنهضى يا أمة العرب) يستشهد بهذين المقطعين :

الى متى أمة الاسلام فى كرب وقد أحاط بكم جيش من النوب
والفكر أضحى من التأخير فى تعب والغير فى الجد أما نحن فى لعب

ما آن أن تنهضى يا أمة العرب

أين الديار التى بالعز آهلة أين الربوع التى بالفضل عامرة
أين العيون التى بالحزم ساهرة هذى مآثرها من أعجب العجب

ما آن أن تنهضى يا أمة العرب

والى جانب هذه اللفتة الواعية للماضى المجيد والتذكير به والدعوة الى جعل الحاضر امتدادا لأمجاده اهتم الشاعر كثيرا بمقوم آخر من مقومات القومية هو اللغة فانبرى يدافع عنها ويدعو الى التمسك بها والحفاظ عليها اعتقادا منه أن أية أمة لا يتسنى لها الحفاظ على شخصيتها ما لم تحافظ على لغتها ومن ذلك ارتفع صوته ـ كما ارتفع صوت حافظ ابراهيم فى المشرق ـ مصورا مأساتها التى أصبحت تعيشها ومحرضا على إحيائها حتى تكون الحياة لأبنائها يقول فى قصيدته (دمعة على اللغة) :

عجبا لهم قد ضيعوها جهالة واستبدلوها بموحش الكلمات
فاستنفرت من قولهم ولطالما جادت على الأسلاف بالنفحات
جاء الكتاب بها الى من أسعدوا ببشائر التذكير والآيات
سئمت من اللفظ الثقيل وحالهم فبكت على الماضى وحال الآتى

درست معالم مجدها وتجردت   عن رونق ومحاسن نضرات
عظم السقام بها وطال أنينها   وتململت من شدة العثرات

ويتخلص الشاعر من هذا الوصف المأسوى لحياة اللغة العربية الى الحديث عن المجد الذى أكسبته أبناءها فى ماضيهم . ولا غرو فهى لغة القرآن التى لم نضيع عزتنا الا باضاعتها :

كانوا بها بين الأنام أعزة   ومصاقعا فى أرفع الدرجات
ولكم بها نفروا خفافا نحو ما   يعلى النفوس ويصقل الملكات
ولكم بها خدموا الديانة حقبة   وتعاضدوا بين الورى بثبات
هذى فوائدها ولست بقادر   عن وصف ما فيها من البركات
لغة السعادة مذ أضعناها غدت   أحوالنا فى أسوإ الحالات
لغة الكتاب هى الحياة لكل من   يبغى الحياة ، ومن لنا بحياة

والدين هو أحد مقومات القومية وكان الشاعر قد لاحظ تخلى الشعب عن مبادىء دينه وتعلقه بأسباب الغى أو ببعض المعتقدات الخرافية التى لا صلة لها بالدين الحقيقى . وأدرك أن من أسباب تأخره وانحطاطه هذا التخلى عن المبادىء الدينية فأخذ ينبهه الى واقعه ويحرضه على حفظ الدين وتنقيته من الشوائب التى لحقت به ويهيب به أن يجانب مظاهر الفساد حتى يستعيد كرامته ويواكب الأمم فى نهضتها :

يا أمة الاسلام كم هذا العنا   أفما لنا عن زجرنا أحلام ؟
يا أمة الاسلام هذا ديننا   وكتابنا أفما لنا أفهام ؟
يا أمة الاسلام هل من عالم   ذى غيرة من شأنه الاقدام ؟
يسعى ويرفع مجدنا بين الورى   وبنفعه يستبشر الاسلام
قوموا لرفعة دينكم وتعاونوا   وعليكم بين الأنام سلام

ولا يهمل الشاعر وهو يحث قومه على التمسك بمبادىء الدين ملاحظة بعض الاوبئة الأخلاقية التى كانت تنخر وجودهم فهو يهتف بهم فى قصيدته (يا أمة العرب) قائلا :

يا أمة لعظيم النصح ما سمعت   أسلافها استيقظوا لكنها رقدت

وفي نوادي الهوى والفحش قد رتعت وما أفاد لسان الوعظ والخطب

ما آن أن تنهضي يا أمة العرب

هذي المفاسد قد راجت بضائعها كذا الفواحش قد عمت وقائعها
والخمر أثرى بين الناس بائعها والفكر عن كل نفع صار في حجب

ما آن أن تنهضي يا أمة العرب

وموقف الشاعر عن الوحدة القومية لم يكن أقل عناية من مواقفه السابقة فهو قد اهتم بهذا الجانب اهتماما كبيرا ونادى أبناء شعبه الى نبذ الخلافات والحزازات والاحقاد في أكثر من قصيدة ويكفي أن نستمع اليه في هذين المقطعين من قصيدته (يا أمة القرآن) ليتبين لنا ذلك . يقول :

هذا الكتاب أتى يؤلف بيننا فلم التقاطع والتدابر والعنا
ان دام هذا الحال حل بنا العنا أفما لنا رجعى الى الاحسان

هيا انهضي يا أمة القرآن

اسلافنا فتحوا البلاد وعمروا والى التكاتف والتعاون شمروا
هذي تواريخ الحقائق فانظروا كم شيدوا بعواصم البلدان

هيا انهضي يا أمة القرآن

هذه هي الاجتماعيات فاين السياسيات :

الملاحظ أن عموم شعر سويسي الذي وصلنا كان اجتماعية في موضوعاته فاذا كنا متأكدين من أن وطنيته هي التي دفعته الى معالجة الاوضاع الاجتماعية راودنا سؤال موضوعي هام هو : كيف قعدت به هذه الروح الوطنية عن خوض غمار الوجود السياسي ؟ هل كان ذلك لأنه كان يفضل أن يستأصل الأدواء على أن يصور الأحداث الآنية العابرة ؟ أم هنالك عوامل أخرى لم تكشف عن نفسها بوضوح ؟

الذي أراه أن الشاعر لم يقصر اهتمامه على الشؤون الاجتماعية بل تجاوزها الى الاحداث السياسية وأن الذي جعلنا نعتقد غير ذلك هو اعتمادنا على ديوانه (زفرات الضمير) وهو ديوان كان قد أصدره سنة 1911 أي قبل تحول عامة الشعراء عن المنهج الذي سلكه هو الى المواضيع السياسية حيث كان اتجاههم

منذ عهد الاحتلال حتى هذه السنة قاصرا على الدعوة الى الاصلاح من حث على طلب العلم الى تحريض على التمسك بتقاليد الدين الصحيح الى تذكير بأمجاد الماضي وما الى هذه من الأغراض القومية الاصلاحية .

إن الشعراء عامة منذ عهد الاحتلال وحتى السنة الحادية عشرة من هذا القرن تقريبا لم يكونوا قد تفاعلوا مع أحداث النكبة بالاستعمار وكان أول حدث سياسي تفاعلوا معه لا يتصل بواقعهم الاقليمي ، وهو حدث حرب طرابلس الذى كان له تأثيره العميق على مواطني تونس عامة وعلى قلوب الشعراء بصورة خاصة فتفاعلوا معه وتحمسوا له ونددوا بالغزو الايطالي واستثاروا الهمم لنصرة الاخوان العرب في طرابلس وكأنهم برآء من الاستعمار خلصاء من العبودية .

يقول الأستاذ الفاضل بن عاشور :

« كان أقرب الأحداث مساسا باحساس الشعراء التونسيين هو حدث طرابلس فاندفع صالح سويسي وسالم بن حميدة والصادق الفقي يصرفون حماسهم في وصف المعارك ومواقف الأبطال ويتطاولون على الغارة الايطالية بالتهكم والتحقير والتحدي فأخرجوا ضربا من الشعر صورت فيه الحرب الطرابلسية بمقابلاتها الدامية وبما وراء المقابلات من عواطف وانفعالات على طريقة شعر الملاحم » .

اذن فالشاعر سويسي قد تفاعل مع حدث طرابلس وهو حدث سياسي ، كما تفاعل معه بعض الشعراء الآخرين ـ فلعل هناك بعض الأحداث السياسية الاخرى غير حدث حرب طرابلس كان الشاعر قد صورها دون أن نطلع عليها .

لا يبدو ذلك أمرا مستبعدا خاصة اذا علمنا أن وفاة الشاعر كانت سنة 1941 وان ثلاثين سنة كانت تفصل بين نشره لديوانه 1911 ـ وهو معتمدنا في هذه الدراسة ـ وبين موته .

وعلى كل وحتى تكشف لنا الأيام عن انتاج الثلاثين سنة المغلقة يمكن لنا أن نتأمل هذه الأبيات من قصيدة (جريح الحرب) التى نشرتها جريدة التونسى وقدمت لها بما يلي :

« صاغ بلبل شعراء القيروان الصداح صديقنا الشيخ صالح سويسي تغريدا حماسيا يستندى به أكف الكرماء

لاعانة الهلال الأحمر ولذلك بادرنا لنشره تحريكا للهمم وايقاظا للشعور قال يصف الجندي في موقف القتال .. »

وبعد هذه المقدمة تورد جريدة التونسي نص القصيدة وهذه بعض أبياتها :

شهم حوى في سبيل الله رضوانا ... قد خاض من بأسه في الحرب ميدانا
بالحزم مرتفع ، بالعزم مندفع ... يحمي بصارمه دينا وأوطانا
أبدى العجائب في الحرب التي شهرت ... على بني وطنه ظلما وعدوانا
طارت له من رصاص البغي أربعة ... فصادفت منه أعضاء وجثمانا
فسال منه دم بالطهر ممتزج ... قد فاق من جنسه في العز ألوانا
فخاطب الجند في الهيجاء مبتسما ... لا تجزعوا وثقوا قد كان ما كانا
هذا الوسام الذي تصبو القلوب له ... دع عنك أوسمة صيغت وتيجانا

هذه هي صرخة الشاعر ابان حرب طرابلس ، ومنها نعلم أنه لم يتوان عن استعراض الاحداث السياسية . ومن يدري فربما كانت له مواقف سياسية لم يتهيأ لنا الاطلاع عليها .

رائد أول :

أول ما تجدر الاشارة اليه عند حديثنا عن ريادة الشاعر سويسي هو عصاميته وبطولته النفسية اذ استطاع بالرغم من قصور ثقافته المدرسية أن يكون له انتاج زاخر فيه الموعظة والعبرة وفيه النصح والتوجيه وفيه التذكير والتنديد وفيه القصيد الخليلي والقصيد المقطع والقصيد الموشح وفيه القصيد التام والقصيد المشطر وفيه بعد كل ذلك خروج عن المواضيع المطروقة المتداولة بين شعراء عصره مما كان لها ارتباط متين بعصر الانحطاط .

ثم هنالك ناحية أخرى تجدر الاشارة اليها وهي أنه لم يقتصر في انتاجه على الشعر ، فله من الآثار الأدبية بعض المقالات والرسائل والقصص التي وان لم تكن قد بلغت الجودة الفنية بالنسبة لعصرنا فانها كانت تعتبر في عصره من الانتاج الأدبي السامي الذي لا يصل الى مستواه الا من كانت له ثقافة أدبية واسعة .

مصطفى الحبيب بحري

يوم الوفاء

شعر : سعد الغزال

خلد كفاحك ، أيها المتحزب ... فالمجد يحصل بالجهاد ، ويكتب
بسمت لنا الدنيا بحزب رائد ... وبقائد بجهاده نتوثب
حزب تأسس قبل أحقاب خلت ... ومضى يخطط للكفاح ، ويحسب
ويحاور الأجيال ، يوقظ وعيها ... ويوضح السبل التى تتشعب
فى أمة يئست ، وضاع دليلها ... وتاخرت ، وتناحرت ، تتألب
البعض مفتون بنصرة مشرق ... والبعض للغير المخلص يرقب
هذا يرى فى الغرب قوة قاهر ... جاءت به الأقدار ، فهو معاقب
ويرى فريق رابع فى وضعنا ... إذذاك ، أن المعتدى لا يغالب
لكن حزب الحق جاء مسفها ... المزاعم المتخاذلين يكذب
فانشق عن حزب تأكد عجزه ... للناس ، والحزب الجديد محبب
فتسابق الأحرار حول زعيمهم ... من يوم أول ملتقى يتنصب
فى دار « عياد » بقصر خالد ... طول الزمان هلاله لا يغرب
عمل لتركيز الخلايا ، إنها ... عبر البلاد نشاطها يتسرب
واستحكمت خطط الحوار، وأثمرت ... وتسابقت همم الرجال ترغب
والوحدة الكبرى ، تحقق حلمها ... بين الفئات ، فأصبحت لا ترهب
وتآلفت أشتات أمتنا بها ... وتآزرت ضد العدو تحارب
هذا يواصل فى البلاد رسالة ... حزبية ، من أجلها يتعذب
وحبيبنا فى الشرق يسعى جاهدا ... طورا ، وفى الغرب المعادى يخطب
حتى استطاع مع الدوام زعيمنا ... تبليغ صوت فى المحافل يطرب
صوت يدوى بالحقائق صارخا ... يغزو المسامع ، للتعاطف يطلب
ما انفك يشرح للشعوب قضية ... خفيت حقائقها ، وكادت تسلب
حتى اذا نجحت دعايته التى ... ظلت لأطراف الدنا تستقطب
بدأ الحبيب كفاحه مستعملا ... خططا لمختلف الظروف تواكب
يغرى العدو مرغبا ، مستسهلا ... كل الصعاب ، وبالصلابة يرهب
تلك السياسة حررت خضراءنا ... وبها بلغنا كل ما نترقب

* * *

واليوم بعد كفاحنا ، وجهادنا صرنا مع الأمم التى تتوثب
تبنى صروح المجد ، وهى كريمة تواقة ، فى سيرها لا تتعب
فى كل يوم مطمح متجدد فى كل يوم مغنم ، أو مكسب
فى كل عام محفل ، وتظاهر لنشاطنا ، وتجمع ، وتأهب
ولنا بهذا العام « عاشر » محفل لمسيرة الأجيال يوم أطيب
يوم به اقترن الوفاء لقائد يرعى البلاد ، وما يزال يراقب
يوم به اقترن الوفاء لمنقذ نحن له الأبناء ، وهو لنا الأب
يوم به اقترن الوفا لحبيبنا إن الوفاء شعارنا ، والمطلب
للمخلصين وفاؤنا متجدد والبر بالأجداد فرض واجب
ومع الوفاء تقدم ، وحضارة ومسيرة كبرى لها نتأهب
عقد الحضارة فى البلاد رهاننا لا بد من تحقيقه إذ نطلب
كل الفئات تشاركت فى عقدها وبه على مر الزمان ترحب
وتوحدت كل الصفوف ، وآمنت بسلامة المنحى ، فنعم المشرب
فى وجهة مدروسة مضبوطة سهرت عليها فى الكفاح مواهب

* * *

فاذا تفاءلنا بعاشر محفل وبرمزه السامى ، فتلك مناقب
عرفت بها الخضراء ، وهى عريقة للمجد والشرف المؤثل تنسب
بمواقف للحزن فى تاريخه قد أوجبتها فى البلاد مآرب
فى كل مؤتمر مضى غنم لنا بل إنها فرص لنا ، ومكاسب
وتتابعت حلقات مؤتمراته تطوى المراحل بالنجاح ، وتخصب
في البعث(*) إشراق لشمس أرسلت أنوارها الكبرى ، وكادت تغرب
هو أول نبغيه فى تاريخنا بعثا لأمتنا ، وكانت ترسب
فى كل مؤتمر بوادر نهضة لبلادنا ، وتحول متعاقب
وتقدم فى كل ميدان لنا واليوم إقلاع ، وهذا المركب
فى البحر يمخر موجه وعبابه ربانه بطل ، قدير ، صائب
صحب الكفاح موجها ، ومعلما ومؤسسا للحكم ، وهو الواهب
شيم العظام تجمعت فى قائد حب ، وإخلاص ، ورأى ثاقب
عاش الحبيب ، وعاش حزب رائد ومثل هذا اليوم عاش النائب
والكل فى رغد الحياة ممتع بالنصر والتوفيق ، وهو الغالب
الحزب يقوى كلما دعمته والحزب بالتدعيم ــ دوما ــ دائب
واصل كفاحك فى سبيل تقدم وتطور ، يا أيها المتحزب

سعد الغزال

(*) إشارة الى مؤتمر البعث المنعقد بقصر هلال فى 2 مارس 1934 .

رسالة الشعر من أجل تحديد لدور الشاعر

بقلم : رضا بوخليص

إن الشعر ـ كوسيلة تبليغ جماهرية فى المبدأ ، وغير جماهرية فى الواقع المعاش ـ كان دوما موضوع مناقشات حارة .

إن الشعراء ودارسى الشعر والنقاد قد حاولوا دائما تحديد مفهومه ، وتبيان أهميته وصالحيته ، ولفت انتباه الجماهير اليه ، لكنهم قد بقوا فى غالب الاحيان فى قطيعة مؤسفة مع هذه الجماهير التى لا تعقد قيمة كبيرة لهذا الفن ، وذلك لأسباب عدة ، من بينها : خاصية اللغة الشعرية ، وصعوبة الحياة التى تدفع الرجل العادى الى عدم البحث إلا عن المصلحة الملموسة وأن يبقى سطحى النظرة للوجود ، ثم غياب الذوق الفنى المسوح بحدة المشاكل المادية التى يتعرض اليها الانسان فى مجتمعنا باستمرار ...

وفى هذا المقال ، سنحاول بسط مختلف المواقف تجاه الفن الشعرى ، وتحديد المهمة المناطة بعهدة الشاعر ، لوضع النقط على الحروف وتبديد الضبابية التى تكسو رؤية بعض الناس .

ـ الشاعر رجل خارج عن الحلقة :

يفكر كثير من الناس في أن الشعر هو نتاج الفراغ، وان الشاعر ليس إلا رجلا قلقا تخلخله بعض المشاكل النفسية ، فهرع الى الشعر لنسيان واقعه المريض والتنفيس عن كربه ، لسيما وأن الشعر يعتمد أساسا الخيال والحلم المتطرف..

ويرى بعض المحللون النفسيون للادب أن الشعر هو شكل من أشكال مـا يسمونه La Sublimation أى تقنين الطاقة الجنسية المكبوتة فى اتجاه خلقى .

(la Canalisation de l'énergie exuelle étouffée en une énergie créatrice)

بايجاز ، إن الشعر فى اعتبار الكثير ، هو تنفيس غرامي . عاطفي ، وجنسي ، يحقق لمنتجه النشوة واللذة الوقتية . إذن ، فان الشاعر يكتب لنفسه ، يكتب مدفوعا بعواطف شخصية لاشباع عواطف شخصية ؛ فهو الغائب فى عالم الآخرين ، والماسح للآخرين من عالمه الفردي ، والمنعزل فى برجه العاجي مع مشاكله وتخميناته ، وحالاته النفسية الخاصة ، التي لا يمكن أن تستقطب اهتمام الآخرين...هؤلاء الذين لا يسعون إلا الى سعادة مادية جافة لا تتجاوز المتطلبات الاولية للجسم... وماذا ترى هم يصنعون بحبه أو بغضه ، بألمه أو براحته. بحزنه أو بفرحه، بعشقه للطبيعة أو بثورته عليها؟؟؟ ماذا ترى هم يصنعون بهيامه بامرأة أو بأخرى ، بقلقه الوجودي ، وبتصوراته ...

المسكين ! يقول بعضهم ـ إنه يخطب فى الصحراء !...

ـ الشاعر افرازة حقيقية للمجموعة :

غير أننا نعتقد أن مجرد قراءة بعض القصائد ، تفند تفنيدا كاملا هذه الافكار المسطحة . وتبين لنا أنه من الحيف والاعتباطية بمكان كبير التفكير بأن الشاعر ليس إلا رجلا ينخره القلق ، قد تفرد بنفسه فى زاوية نائية عن العالم وعن مشاكله .

إن هذه النظرة « القطية » من شأنها جحود الخصال الرفيعة للشاعر ، والحكم عليه بالاعدام جزافا . لا ! إن الشاعر لا يكتب لنفسه فحسب ، ولا يترجم فقط عن آلامه الخاصة لأنه قبل أن يكون شاعرا ، هو رجل اجتماعي بالطبع ، أفرزت عقليته ونفسيته الثقافة والحضارة ، والمحيط الاقتصادي والاجتماعي الذي يحف به ، فهو ـ فى رأينا ـ لا يستطيع أن يكون مختلفا تمام الاختلاف عن الآخرين لكي تكون له مشاعر خاصة جدا ، أو رؤية شاذة . فهو إذن عندما يكتب لا يعبر فحسب عن حقيقته هو ، بل عن حقيقة من يتعايشون معه ، أو على الأقل من ينتسبون الى انتمائه الاجتماعي .

إنه كما يقول الشاعر الفرنسي فيكتور هيغو : « الصدى الرنان للانسانية »

ـ الشاعر صوت الانسان :

إننا فى كتابات الشاعر ، نكتشف مختلف أوجه الوجود . إن الآلام التي يعبر عنها هي فى ختام الامر آلامنا ـ الحب ، القلق الوجودي ، الحيرة

الميتافيزيقية ، الثورة ضد القدر أو ما يحل محله كالاستعمار أو الاستغلال ، الأمل والحلم المستمر بعالم أفضل ، أو بمستقبل أفضل ، أو بحتمية أفضل . هي مشاعر نتقاسمها كلنا . وعندما تتاح الينا قراءة قصيدة تثير احدى هذه المشاعر ، ننفعل معها جد الانفعال .

فان يقول الشاعر الفرنسي « لمرتين » LAMARTINE مثلا :

« لنحب إذن ! لنحب إذن ! من الزمن الهارب »

« لنسرع ، ولنتمتع ! »

« الانسان ليس له ميناء ، الزمن ليست له ضفة »

« إنه يسيل ، ونحن نمر »

فذلك ليس مجرد تعبير عن شعور شخصي ، لأننا نستشف في هذه الأبيات دعوة واضحة الى المتعة ، الى الحب (بمفهومه العام والعميق) موجهة الى الجميع ، وليس فحسب الى الشاعر ، لأن سيلان الزمن وتصاعده نحو الموت ، وسعي الانسان للتغلب عليه بالمتعة والحب ، هو مشكلة تهم الانسانية جمعاء ، وذلك لأنها كلها هدف هذا الزمن آكل الحياة حسب تعبير « بودلير » BAUDELAIRE .

وأن يقول أيضا الشاعر الفرنسي « أبولينير » APOLLINAIRE :

« تمر الأيام ، وتمر الأسابيع »

« لا الزمن الماضي »

« ولا الحب ، يعودان »

« تحت قنطرة ميرابويسيل « السان » »

ففي ذلك ، لا فقط ، أسف على حب ضائع ، أو على زمن حلو مر مثلما تمر مياه نهر « السان » وإنما أيضا تذكير للناس بأن كل شيء يمر ، وبأن كل شيء يمسح ، وبأن هذه الحياة ليست إلا سقوطا عموديا ، فيجب إذن الاغتنام منها قبل أن تنهار في غياهب العدم الأخرس .

— الشاعر نفوذ على نفس القارىء :

يقول الناقد « روجي كيوى » في كتابه « الفن الشعري » :

« ان الشعر يسعى لتوليد انفعالات بوسيلة كلمات »

إن تأثيره ـ حسب رأيه ـ شبيه بتأثير السحر ـ :

« نفوذ على قلب وخيال القارىء »

إنه يفتح اليه آفاق الحلم . والبحث عن الكمال ، والهروب الخيالى من العالم المادى ، الصلب الحيوانى ، والسافل ...

إن الشاعر ، مثل الساحر ، يجذب القارىء ، ويمـارس حتى على جسمـه سلطة النسق . وبالتالى يصل الى :

« تهدئته ، وانفعاله ، وتسهيل الراحة اليه » .

لأن ـ يقول (روجى كيوى) :

« اتباع نسق هو منبع للراحة والانتشاء » (1)

وهل من السهل الوصول الى ممارسة نفوذ على عقل ، وقلـب ، وجسـم القارىء . بنسيج الكلمات والنسق ؟!!

ـ الشاعر يخلق الأشياء من جديد :

إن الشاعر بأبياته ، يخلق من جديد عالم الاشياء ، يكسبه معنى آخـر ، ودلالية أخرى ، ويجمله ، فيسمح بذلك للقارىء دخول عالم جديد ، يحمله فى عمقه باستمرار ...

هذا العالم الذى لا يشمل حسب تصويـر ـ بودليـر ـ إلا : « كمـالا ، وصمتا ، ونشوة » (2) .

وأين الانسان يمكن أن ينسى عبثية وضعيته الانسانية المميـزة بالمـوت الحتمى والمرير الذى يشل حلمه بالأبدية ويهدر آماله فى الخلود .

والآن ، هل نستطيع مواصلة استنقاص من شأن رسالة الشاعر والتفكير فى عدم جدواه للعالم ؟!

---

(1) أنظر : روجى كيوى Roger Caillois « الفن الشعرى » l'Art Poétique

(2) انظر بودلير ـ « دعوة الى السفر » بديوانه « زهور الشر » .

لا بطبيعة الحال ، خصوصا وأن الشاعر يمكن أن يكون مناضلا ومثيرا هاما لرفض التدهور فى المجتمع ...

ـ الشاعر موقظ للوعى الخامد :

إن الموقف الذى نتبناه ، ونفضله على غيره فى هـذا المضمـار ، هـو أن الشاعر جرس فى دماغ النائمين ، إنه ايقاظ للوعى المتثائب ، أو المخدر ، أو المختنق ... إنه حارس نبيه للعدالة ، والحرية ، والحب .

فعندما تتألم الشعوب من قهر أو من آخر ، فانه مطالب بالتعبيـر عن هذا القهر ، وتعرية العوامل الحقيقية للقمع ، أو للظلم ، أو للاغتراب الاجتماعى ، وإنه الاول طبعا فى محـاربة أعـداء الحـق والانسـان ، وفضحهـم وكشـف خزعبلاتهم ...

ومثالنا على ذلك الشعر الفلسطينى ، الذى نعتبره المثال الأرقى للنضالية فى الشعر العربى ، والذى لا نعتقد أن هناك من يتطاول عليه ويجحد مساهمته المرموقة فى التوعية الجماهيرية ، وفى تحريك الوعي الثورى فى نفوس رفاقنا الفلسطينيين ...

إن الشاعر محمود درويش مثلا عندما يصرخ ، ويهدد قائلا :

« ولكنى اذا ما جعت »

« آكل لحم مغتصبى »

« حذار ! حذار ! من جوعى »

« ومن غضبى »

يعبر عن موقف الرجل العربى الذى كبلتـه طويـلا أغـلال الاستعمـار ، والامبريالية ، والصهيونية ، والذى بنضاله المجيد لا بد أن ينتصر يوما على مغتصبيه ، ويحرقهم بنار غضبه التى تستفحل من حين لآخر وتحتـد بفعـل التفقير ، والقمع ، والتشريد ، والتقتيل ...

وعندما يقول أيضا :

« علمتنى ضربة الجلاد »

« أن أمشي على جرحي ... ثم أمشي »

« وأقاوم ... »

فهو يدعو العرب الى مواصلة النضال مهما بلغت شراسة العـدو ، ومهما تفاقم شره .

إن هذه الأبيات حث للهمـم وتشجيـع ، وقتـل لنـزعة الاستسـلام فى النفـوس ...

وفى هذا المجال ، لا يمكن أن نمر بدون أن نشير الى أن الشعر التونسى الشاب (الذى نعترف به) يندرج فى هذا الاطار الحميد ، ونذكر بدون حصر، من بين ممثلى هذا الشعر : المختار اللغمانى الشاعر الفقيد ، صاحب مجموعة « أقسمت على انتصـار الشمس » ، عبـد الحميد خـريف ، على دب ، سـوف عبيد ... وغيرهم ...

وفى ختام هذه الدراسة المتواضعة ، نتمنى أننا قد وصلنا الى وضع النقط على الحروف ، واقنعنا مستنقصى الشعر، بصالحية وأهمية هذا الفن الضرورى، المتحدى للزمن ، والصمت ، والموت : الشعر .

رضا بورخيص

اشتقت لك ..

قصة : أحمد الطويلي

اشتقت لك !.. ـ أين أنت ـ كى القاك ؟ منذ حملت حقيبتك ومضيت .. ما عثرت عنك .. ما وجدتك فى أى مكان !..

تساءلت عنك .. سألت عنك احبابك ومعارفك .. لكنهم جهلوا مقرك .. ما عرفوا أين أنت !..

كنا فى كل مكان .. فى كل زمان .. فاذا انا بدونك ..

بدون لقائك .. لا يحتوينى مكان .. ولا زمان ..

ماذا انا بدونك .. بدون لقائك ؟

كنت معى فيما مضى .. وتخاصمنا . وملأنا الدنيا ضجيجـا وصراخـا .. وذهبت بدون رجعة .. وبقيت انا بدونك ..

فى أى مكان أنت ؟

سنون عديدة وانا افكر فيك .. افكر فى اللحظات الفريدة التى صرفتهـا بصحبتك .. أفكر فى لقياك ..

أنت نغم حياتى .. والدنيا الآن نشاز .. ورتابة .. وسأم !..

أنا مشوق اليك .. الى ارتعاشة أناملك .. الى تحفز اعصابك .. الى نظرتك المتأملة ..

منذ حملت ادباشك وانصرفت صرت غريبا فى بيتى .. وأقفرت حياتى ..

فأين أنت كى القاك !.. فأى سماء تظلك .. وفى أى بلد أنت ؟

أنا محتاج اليك .. ما هى اخبارك !..

تركت فى حياتى بصماتك .. صبغت ماضى بظلالك .. وجسدك رسمت عليه أحاسيسى .. كم رحل فى دنيا عواطفى وحواسى ..

ماضى قطعة منك .. جزء من شبابك ..

بأظافرنا لحدنا سعادتنا ..

ضحكاتنا المتفجرة تقلصت وملأ الدنيا صمت وشجن ..

الخمرة .. فى أى كأس سأشربها ؟

من أراقص .؟ وأى رأس وديع يحتضنه صدرى ؟!..

فتعالى اشربى دموع عينى !..

تعالى .. والعنى الدنيا كعادتك .. وتهاونى بالناس .. وسبى العادات والتقاليد .. وثورى على الحياة ..

كنت تكرهين القيل والقال .. وتسخرين من كل ما يقال عنك ..

كنت تتهاونين بالتزمت والتحجر ..

* * *

طعم قبلاتك لا يزال على شفتى ..

طعم جسدك الغض ما زال على اسنانى ..

أناملى لا تزال تتذكر غضاضة بشرتك .. وتحن اليها ..

فالعنى الدنيا . فقد بت ألنعها معك !..

لئن كان ماضينا معشوشبا اخضر فقد حلت اللعنة بحاضرنا ..

صرت لا اكترث بالنساء بعدك ...

المرأة بالنسبة الى عينى هى أنت !..

أنت حواء .. وأنت كل النساء !..

* * *

آدم مجروح .. موجوع ... يبكى حواءه ... كانت معه فى الفردوس فلما نزل الى الارض لم يجدها .. أكلنا معا من التفاح المحرم .. عرفنا السعادة الى الاذقان ..

أطعنا الاله حتى شبع من طاعتنا ثم أطردنا ..

آدم وحيد .. وحبيبته بعيدة عنه .. والدنيـا واسعة عريضة .. بحث عنها طويـلا ..

وهى مريضة .. مهيضة .. فقد بعضهما بعضا ..

حواء تبكى .. جن جنونها .. اضاعت رشدها ..

أين آدم ؟

نزل أحدهما فى الشرق والآخر غرب !..

طالت مسيرتهما ...

حواء وحيدة تتذكر الماضى .. غفلتها أودت بها ..

خدعته ولم تكن تدرى !

حواء لم تحمل من آدم .. بقيت الارض خلاء بلقعا .. والناس لم يولدوا ..

الشمس فى الدنيا تشرق وتغرب سبهللا ..

ومياه البحار تتبخر فى السماء ثم تعود ماء وتنزل فى اللجج !

الارض تدور كعادتها .. وآدم يبحث عن حوائه فى الجبال والاوديـة ، فى الشعاب والهضاب ، فى الصحارى والغابات .. لكنه لم يجدها ..

آدم يبكى حواء ، وهى تبكيه ..

آدم يعض بنانه ندما وهى كذلك أسفا وحيرة ..

أرهقهما الحنين الى بعضهما بعضا .. أرهقهما الحب والشـوق .. وحواء لا تجيب لانها لا تسمع ..

ضاعت منه .. وضاع عنها ..

* * *

أين أنت كى ألقاك ؟.. فى أى مكان أنت وفى أى دنيا ؟

أنا ألوك الذكريات .. وأجتر الماضى .. وأمضغ العذاب ..

اسطورة آدم أسطورة غامضة عميقة السر ...

اشتقت لك !.. أين أنت كى ألقاك ؟

احمد الطويل

عُظماء بلادي في الميزان

بقلم : بنت البحر

مقدمه :

انتصفت السنة الدولية للطفل ، ومع ذلك لم يبرز فى مجلاتنا ، ما يشفى غلة الطفل الى مزيد من الدرس والتحليل لعالمه ولكتبه التى أصبحت تشغل جانبا هاما من المكتبات . لذا سأحاول من خلال نموذج أن نرى ماذا قدم الكاتب التونسى للطفل ، ولعل مجموعة « عظماء بلادى » للاستاذ رشيد الذوادى ، والتى تضم عشرين كتابا لرجال برزوا فى الدين أو العلم أو الوطنية كما يبدو من عناوينها (I) ، يمكن أن تعطينا فكرة عن ذلك .

عالم الطفل :

قبل تحليل مضمون « عظماء بلادى » يبدو ضروريا أن نتساءل : ـ ما هى أهم مميزات الطفل التى يجب اعتبارها عند الكتابة له ؟ وسؤالنا هذا يعطينا جوابا يكاد يكون بديهيا تؤكده كل الدراسات النفسية لعالم الطفل ، وهو :

ـ حساسيته تجاه المحسوس : الذى بواسطته يكتشف الاشياء ويتأكد من وجودها ، ومنها يصل الى المجرد .

(I) محمد العربى زروق ـ فرحات حشاد ـ أبو القاسم الشابى ـ محرز بن خلف ـ خير الدين باشا ـ على البلهوان ـ الطاهر الحداد ـ محمد الدغباجى ـ محمد على الحامى ـ حنبعل ـ الحبيب ثامر ـ الامام المازرى ـ يوغرطة ـ ابراهيم الرياحى ، ـ عبد الرحمان بن خلدون .

ـ خياله الواسع والذى يهوى التحليق كلما وجد السبيل الى ذلك .

ـ حبه الاستكشاف أو المغامرة التى عن طريقها يكتشف الطريق الى مـا يجهــل .

كيـف نكتـب للطفـــل ؟

اعتبارا لهاته العوامل الثلاث فى نفسية الطفل ، يمكن القول أن الكتـابة للاطفال تتطلب طريقا واضحا محسوسا وهنا تكمن قيمـة الوصف فى قصص الاطفال حتى فى أكثر المواقف تجردا .

بذلك نمسك **بخيال** الطفل ونفتح له باب السفر الى عالم القصة فيتفـاعل تلقائيا مع وضوح المشهد والموصف ، وخاصة اذا كان الكاتب قد عرف كيف يطرق عقل الطفل بما يوقظه ويشغله ، **فيتسلسل** به فى طريـق مشـوق ، تسكنه **المغامرة** ، فلا يقف به حتى يحمله ما يريد . وهنا يبدو « دور المربين ـ أو كتاب قصة الاطفال ـ فى تحديد واتجاه بناء شخصية الاطفال » (2) .

فالغرض من كتابة القصة هو من أهم ما يجب أن يفكر فيـه كاتب قصـة الاطفال لما له من تأثير على خلق الطفل وبناء شخصيته .

مـاذا فـى عظمـاء بـلادى ؟

أهم ما يبرز فى هاته السلسلة ومن خلال عناوينها ، اتجاهها القومى . فهى ليست قصصا خلقها الكاتب كما أراد وكما انطلق به الخيال ، بل هى قصص تقيد فيها كاتبها بالواقع التونسى الذى أنجب هؤلاء الابطال ، مع ما فى ذلك من صعوبة فى النزول به الى مستوى عقل الطفل والمحافظة فى آن واحـد على الحقيقة التاريخية .

ولعل هذا من أهم مميزات المجموعة ، وأهم ما شدنى الى محاولة تحليلها .

المضمـــون :

الأصــالة : أهم ما يلفت النظر هو التقيد فى عشرين كتابا برجال نجهلهم أحيانا ولا نهتم بهم أحيانا أخرى .

---

(2) محمد غازى التدمرى .

ومع ذلك فقد عمل الاستاذ الذوادي على البحث عن أخبارهم وأفعالهم التي هي بعيدة أحيانا عن دنيا الاطفال (الامام المـازري ... محـرز بن خلف ...) وغير متداولة فيما نقرأ من كتب ، ومع ذلك ، فقد نزل بهـم الى الاطفـال ، فقدمهم في قصص حية نابضة مبسطة ، وبذلك قدم مجهودين سعى بهما الى غـايتين :

1) مد الاطفال بقصص تخدم غرضا أخلاقيا أو وطنيا .

2) تعريفهم بأبطال أنجبتهم هذه البلاد ، مما يجعلهـم يفخـرون بأبطـالهم ويعتزون بقوميتهم وبلادهم . وهذا يذكرني بقول الاستاذ محمد مزالي متحدثا عن التونسة : « هي روح قبل كل شيء ، ووفاء للذات ، وعمل لخلق شبـاب تونسي يؤمن بمقومات أمته التونسية » (3) .

وهذا يؤكد اتجاه الاستاذ الذوادي القومي الذي يسعى من خـلال كتاباته المتعددة أن يقدم صورة كاملة معترفة لأبطال بلادنا .

كيـف تبـدو الأصـالة في عظمـاء بـلادي ؟

1) مـن خـلال الشخصيـات

كل شخصيات عظماء بلادي رغم اختلاف أزمنتها ورغـم الاختـلاف النسبي لنوعية نضالها ، فهي أصيلة تربة واحدة ، متشبثة دوما بها ، ساعية دواما الى إرواء عطش الارض الى الرفاهية أو الحرية أو الحق والخير ، فمن الامام « ابـن عـرفة » « المجتهد والمجـدد في الـدين » الذي ارتقى الى خطة الافتاء بالمملكة الحفصية بعد أن كانت الفتاوى تأتي اليه من مسيرة شهر » (4) .

الى « محرز بن خلف » الراحل عن قريته الى مدينة تونس ، يدرس ويوقظ العقول النائمة ويدعو الى سنة الرسول ثائرا مقاوما بذلك السلطة الحاكمة ، الى محمد العربي زروق « الذي وقف في وجه الباي « أن لا سبيل الى الامضاء على المعاهدة والارتماء في بوتقة المسخ والانصهار في ذاتية أجنبيـة عنـا » (5) والمضطهد والمغترب لاجل قولة حق ووفاء للارض المغتصبة . الى الطاهر الحداد ، الداعي الى تحرير الارض عن طريق تحرير المجتمع « بمقاومة الجهل والتخلف

---

(3) مواقف ، ص 37

(4) الامام « ابن عرفة » .

(5) محمد العربي زروق .

والاستعمار » (6) ، والمنطلق بكل نشاطه الى الدعوة لحقوق العمال وحقوق المرأة المهضومة ، الى غيرها من الشخصيات التى اتسمت بحدة الاحساس بمشاكل هذه البلاد ، فوقفت صامدة تكافح الجهل والظلم والاستعمار .

وحتى لو قرأنا هاته الكتب بعقول « كهلة » فلا بد أن نتفاعل مع هاته الشخصيات المكافحة ، وأن توقظ فينا رائحة الارض المترقبة لسعى أبنائها الدائم للمحافظة عليها ومقاومة كل الجرائيم التى قد تغزوها ، مع كثير من الاعتزاز لا يمكن أن تنكره ، ونحن نتعرف على رجال تونسيين فرضوا وجودهم وقيمتهم على نطاق واسع تجاوز حدود البلاد ، فما بالك إن كان هذا الانطباع فى نفوس أطفال بدأت تتفتح على المجتمع الكبير الذى تجهل الكثير من تاريخه ، والذى ربما كل الاشياء الواردة عليه من الخارج تتركه يستصغره .

2) **من خلال البيئة :**

إن تصوير البيئة أو المكان يسير فى اتجاه مواز لاتجاه الشخصيات . فهى « مسرح فعل وحركة » (7) تتحرك عليه الشخصيات فتنسجم معه ، فى حين يكمل الملامح الخفية والمترسبة فى الابطال ، فوصف المدينة فى قصة الامام « ابن عرفة » ، « بحرها اللافح وخيراتها الكثيرة وسكانها الطيبين » (8) ، هو مكمل لوصف بن عرفة الأب فى صبره على البعد وحبه للرسول ومدينته « وورعه وتهجده » . ونحن إذ نتابع « ابن عرفة » نجد أننا ننتقل بين بيئتين مختلفتين. فمن المدينة المنورة « بأيامها القائظة وحرها اللافح ونسماتها الندية فى الليل الداجى » . هاته المدينة التى تحكى عن عظمة الخالق وقدرة الصانع والتى صار العيش فى مرابعها يعود على الصبر ويلطف المشاعر من هذه المدينة ينتقل بنا الى مدينة تونس أيام الدولة الحفصية « بحيها العتيق وممراته المزدحمة بالناس ، وحوانيته الكثيرة تعبق بالعطر وبذرات البخور الهائمة وبقلب هذا الحى العتيق جامع الزيتونة الاعظم » ، ومنه « يخرج محمد ابن عرفة ذات صباح قاصدا جامع الزيتونة وقد تذكر أباه وما قاسته أمه ... وهو يسير فى صمت بين شوارع مدينة تونس الممتدة وبين أزقتها الضيقة... كان جائعا وفى حاجة حتى الى خبز يابس » (9) .

وعلى هذا النمط تمضى جل قصص المجموعة فى وصفها للبيئة بمميزاتها

(6) الطاهر الحداد .
(7) د. زكى نجيب محمود .
(8) الامام « ابن عرفة » .
(9) الامام « ابن عرفة » .

ونمط عيش أهلها . ولعل هذا ما يؤكد أكثر أصالة هؤلاء العظماء وانتماءهم وارتباطهم ببيئتهم . وهذا ما يوضح لنا « نسق القيم القائم الذات والرؤية الكونية الخاصة والمراجع الايديولوجية المعينة ، التى ينطلق منها الاستاذ الذوادى فى قصصه ليكون له غرض واضح محدد ، هو أساسى للكتابة للاطفال .

الشكل :

إن مثل هذا المضمون القيم والدسم الذى نقدمه للاطفال ، لا يمكن أن ينفذ الى قلوبهم وعقولهم ، الا اذا قدم فى شكل واضح ، مغر ، ومشوق ، وقد عمد الكاتب الى تقديم حياة أبطاله فى شكل قصص فى لغة حية ، بسيطة وثرية معا ، تفيد الطفل وتغذى أسلوبه ولغته خاصة وهى تتجه الى أطفال أواخر الابتدائى وأوائل الثانوى . وهذا الجانب ، أى اللغة ، يساعد الطفل ويغريه بالقراءة ، استعذابا لجمال التعبير .

ولكن اللغة وحدها أحيانا لا تكفى لشد انتباه الطفل ، فعنصر التشويق والمغامرة لا بد أن يشد انتباهه حتى النهاية .

ولقد وفق الكاتب الى ذلك فى جل القصص (محمد العربى زروق ، على البلهوان ...) ولكن نجد فى قصص أخرى أن عنصر التشويق يقل ويخبو فتقترب القصة من الترجمة التاريخية ، كما فى قصة « الامام المازرى » على سبيل المثال .

وأعتقد أن أمانة الكاتب التاريخية هى التى جعلته يقدم لقارئه الصغير الحقيقة التاريخية دون إضافات من عنده تعطى للقصة أكثر حركية ، وخاصة مع الابطال القدامى الذين تقل المراجع حولهم .

بقيت كلمة أخيرة حول التسلسل القصصى.لقد بدأ الكاتب الكثير من هذه القصص بالنهاية (محمد العربى زروق ...) أو بتسليط الاضواء على الشخصية من زاوية بعيدة (محرز بن خلف ، الامام ابن عرفة) الذى يبدأ فيها القصة بوصف حالة الاب فى المدينة ثم ينتقل الى تونس ليحدثنا عن الابن) وهذا معمول به عند أغلب كتاب القصة المعاصرين مبتعدين بذلك عن تسلسل القصة الكلاسيكية . ولكن بالتوجه الى الاطفال يختلف الامر شيئا ما . ولو أن الكاتب عمد بهاته الطريقة الى تشويق الطفل للقصة ، الا أن فكرة الزمن فى ذهن الطفل تتشوش بسهولة ، فتتعثر فى ذهنه الاشياء ، وأظن أنه من الابسط للطفل ، حتى وان كان فى أواخر طفولته أن نمضى معه من أول الطريق لآخره حتى نتحقق أنه استوعب كل ما أردنا ايصاله اليه .

رأى الأطـفـــال :

لم أشأ أن أنفرد برايى فعمدت الى تقديم البعض من قصص هذه المجموعة الى الاطفال بداية من مستوى الخامسة ابتدائى الى الثالثة ثانوى ــ لأنى أعتقد أنها صالحة حتى لتثقيف الكبار ، لأنها تعطيهم فكـرة مبسطـة عـن تـاريخهم وقدمت لهم الاسئلة التالية :

ــ هل وجدت فائدة فى هذه القصة ؟
ــ ما رأيك فى تسلسلها ؟
ــ ما رأيك فى لغتها ؟

فكـانت الاجـوبـة أن أجمـع الاطفـال عـلى **الفـائـدة** التى وجـدوهـا فى هاته القصص ــ من الناحية التاريخية والثقافية .

ــ من ناحية اللغة : فهى ممتعة « وتمتاز بالصور » .

على حد تعبير أحدهم مع بعض العبارات الصعبة التى يمكن تجاوزها بالمنجد. ولكن اختلف بعضهم حول الاسلوب . فكانت النسبة المائوية التى استحسنت الاسلوب 80 % . و 20 % وجدوا ان الاسلوب « غير متسلسل » وأضيف هنا أنه ربما كان يتطلب منهم تفهما وتمعنا أكثر .

خــلاصـة :

يبدو من خلال هاته المجموعة أن الكاتب قد قدم تجربة فريدة فى نوعها :

ــ فقد قدم قصصا هادفة للاطفال تنطلق من بيئتهم ومن مجتمعهم .

ــ كما قدم ــ فى نفس الوقت ــ شخصيات واقعية ، أصيلـة ، تشـرف الطفل وتغرس فيه الاعتزاز ببلاده وقوميته . وتشجعه على السير على دربهـا فى الارادة والكفاح والجهاد ، فيكون غرسا نافعا ضارب الجذور فى تربته ولعل هذه الغاية تستحق وتبرر اضفاءات على القصة عند شح المراجـع حـول بعض الشخصيات حتى تتسلسل القصة مشوقة دوما من أولها الى آخرها داعية دوما الى التفكير . وهذا « ما يجعلنا نربى ناشئتنا على أن يحتفظـوا بميـراثهم فى تدريب الارادة الماضية وفى التطلع والمغامرة ، ثم يضيفون الى ذلك تدريبا آخر على النظر العقلى والبحث العلمى » كما يقول الدكتور زكى نجيب محمـود . وبهذا يكون الاستاذ الذوادى ــ رغم كل شىء ــ قد قدم عمـلا يستحـق كل التقدير ، لانه عمل انطلق من مجهودين الى غايتين تدعمان شخصيـة **الطفـل** التونسى وتثريانها . ولعل أعمالا أخرى فى هذا الطريق ، مستمدة من تاريخنا أو من حكاياتنا ، تعطى طعما جديدا لقصة الاطفال فى بلادنا .

بنت البحر

في الصّيف ...

شعر : محمد الشّابي

ذات يوم ..
كنت قد قابلت « ليلى » ...
كنت قد فكرت فيها
ليس إلا ..
وزرعت الأرض قمحا ... وشعيرا ،
ووهبت الصيف نعناعا .. وفلا ...
صدفة ، كنا التقينا ..
حول أوراق ... رسمنا ،
فوقها ، أزهار دفلى ..
وتناقشنا طويلا ..
وتجادلنا باحساس الذى ما زال طفلا ...
وتحدينا الذى كان كبيرا ..
نحن أعطينا، لشكل الارض شكلا...
كانت الأمطار .. تهمى ..
ما تبقى
ورق بين يدينا ... لم يبلا ..
وانا قد كان فى قلبى خيول ...
كلها جامحة ، تسبق خيلا ..

آه لو راجعت أفكارى قليلا ...
وملأت الورق اضواء ..
وظلا ...
لو أنا ، حاولت أن أكتب سطرا
واحدا .. ينبت أعشابا ...
ونخلا ..
لو أنا عريت إحساسى إليها ...
آه .. لكن لسانى قد تخلى ...
انت يا صيف صديقى ..
وحبيبى ...
إننى لم ألق ، من قلبك ، خلا ..
فأعدنى لزمان كان حلوا ...
وأنين البحر فيه
كان أحلى ..
سوف أبقى
أذكر الصيف بخير ..
فانا ، فى الصيف .. أحببتك ..
« ليلى » .. .

عيون حزينة في قطار

قصة : عائشة غرسلاوي

ضاقت المحطة بمن فيها ... تزاحمت الحقائب ..تكدست كنصب الاضرحة . ترددت الاصوات واختلف الكلام ... علا صياح الباعة ... باعة اللمج والمشروبات المتنقلة ... طال الانتظار ونظر المسافرون المرار العديدة فى ساعاتهم لكن الوقت كان يكبو رويدا رويدا كمسافر عجوز على طريق وعرة ... ثمة ملل وهناك ضجر ... يبرز بائع من نوع آخر ... إنه يحمل حزمة من الورق الخفيف ... لن يسأل أحد عما يحمل هذا البائع ما دام قد اعتاد رؤية أمثاله ...

ظل يقفز وينادى : العمل ـ الصباح ـ لابراس ـ لموند ...

تهافت عليه بعض الشباب ... الانباء مهمة هذه الايام :

« السادات يتحول الى اسرائيل ويخطب فى الكنيسات ... احتجاج بعض المسؤولين العرب على موقف السادات ... ماذا عن ندوة جونّاف القادمة ؟... الأمر بمنتهى الأهمية !...

« كل شىء له أهمية إلا حياتى أليس كذلك ؟ » هذا ما خامر نفس تساهيل الواقفة فى الزحام ... لا شىء يميزها عن البقية إلا تلك العيون الهادئة وذلك الصمت المخيم ... بأية حال ليست محل نظر ولا موقع حديث ... وفجأة اهتزت الاعناق فتسلل الاطفال وأسرع المسافرون ... ما الذى غيرهم ؟... جرى كلهم نحو القطار كخروف يسعى لملاقاة أمه ... وبسرعة ابتلعهم وحقائبهم ... احتلت تساهيل مقعدا وجلست كعادتها فى هدوء ... ما الذى تراه ؟

... أماكن شاغرة ومحتلة فى نفس الوقت ... هل كل الركاب أقارب حتى يستحوذوا على المقاعد ؟ وإذا كانوا أقارب فهل حكم الوراثة يطبـق حتى على مقاعد القطار ؟... أمعنت فى التفكير ... لماذا تطالعها مثل هذه الاسئلة ؟ لماذا تتحامل على هؤلاء ؟ أليس لعدم وجود قريب معها ؟... صحيح ليس معها انسان تعرفه ... كل أقاربها ساهون عن مرافقتها ... بعيدون عن الطيبة ... يكفى أنهم أسموها تساهيل ...

هل صحيح أنها ستوفق فى أعمالها لمجرد أنها تدعى بهذا الاسم ؟..

قالوا لها اقبلى الامور كما هى ... كما هى وعلى الله التساهيل ... ضحكت عند هذا المعنى ونادت فى داخلها : « أماه ! بنتك مغلوبة » . وتلت ضحكتهـا ابتسامة ظاهرة ولكنها عابرة وتحركت شفتاها لتعلنا بصوت خافت : « لكـن بحكم العادة » .

القطار غاص بالناس وتساهيل تعيش وحدها ... ذكراها البائسة لا تدعها تعيش داخل هذه المجموعة الصاخبة المتضاربة الآراء والاتجاهات ... آلامها الدفينة تحرم عليها كل شىء حتى الكلام ... ما الذى فرض عليها هذا الحزن الدائم ؟ من الذى سلط على عينيها هذا الجمود المستمر ؟.. القطـار يجـرى ويسرع ... يجرى ليقف فى محطة جديدة ، ليصل فى الوقت المعين ... أمـا تساهيل فانها تسرح ناظريها فى الخلاء ... إنها لا تتـأمله ، وأى معلومـات ستحصل عليها لو فعلت ذلك ؟.. تعرف جيدا أن ثمة مدنا وقرى ، أن هناك بقاعا قاحلة وأخرى غناء ، انه يوجد أناس يغلب عليهم المجون وآخـرون فى بساطة وخصاصة ... إنها تثبت كل ما تتوقعه فلا داعى إذن للتأمل ... تأملى نفسك يا تساهيل وانسى جراحك ... ليتها تستطيع أن تئد أفكارها ... لن تبكيها أبدا ... لكن إن لم تبك الماضى فستندب الآتى ... واثقة أن مستقبلها يغص بآلاف الليالى الموحشة وأن طريقها وحل وأن الابواب التى ستطرقها قد اغلقت بقوة ...

اجتاز القطار جسـرا فحـدث دوى هائـل ... أطبقت عينيهـا فتطـايرت أفكارها ... ذهبت فلتذهب ليست أكثر خلودا من الحضارات ... نظرت فى ساعتها ... الزمن يهزأ بها ... لقد ترك آثاره على جلدها ... لن ترحمه لـو وقع فى قبضتها ... ضحكت ساخرة من نفسها عند هذا المعنى ... تعجبت من موقفها إزاء ذاتها ... أهى أيضا تعرف القساوة ؟...

استردت شجاعتها لكن عبثا فالمأساة ليست هناك ... تساهيل كل قضاياها خاسرة حتى الموت ... القدر يسلبها كل شىء فى وضح النهار ...

... اختطف أباها ـ أعز الناس لديها ـ من أمامها ... لطالما آلمها منظره وهو يصارع الموت ويجهش بالبكاء ... رمى بأمها في أحد المستشفيات ولا أمل لها في شفائها ... قدرها صفعها أمتارا وها هي تراه رابضا بين الأزقة المظلمة كقاطع الطريق ... قدرها أسود لا يسكن إلا الظلام ... إقامته في النور والضياء يثير غضب البيض عليه ... إنه لعلى صواب إذ اختار لنفسه مثل هذه الاماكن ... قد راعى مصلحته لكن يا تساهيل لن يراعى فيك شيئا ما دام حزنك طويلا كشجر الحور ... ما دامت حياتك غبراء كساحات الاعدام ... من يوليها اهتمامه ؟... تذكر أنها أجلسته على منديل أبيض كالأرز يوم صادفها على الرصيف ... أحضرت له ملف دموعها ورقم خدها وطلبت الاسترحام ... أنف آنذاك من مجادلتها ... قال لها : « راجعيني غدا في مكتبي القائم بين العوسج والصخور » ...

أقول أنف واستنكف إلا أنه طمع في منديلها فشوهه وألقى به في الوحل ثم عبر بسرعة كالمدين أمام حانوت دائنه ... أطرقت في الارصفة وبكت ...

كيف لا تبكي ؟ كيف لا تحمل وحدها حزن الأبدية ؟... ماذا بين الصخور والعوسج ؟... آه ! كم تتمنى لو تكون محمومة في قرية بعيدة ... لم تعد تبالي ... مستقبلها في قبرها ... لاحت لها من بعيد معالم العاصمة فبعثت بكل ما خامرها في تنهيدة طويلة ... أين تذهب آهاتها ؟... قد تتجمع في السماء فلتنتظر بكاء السماء ... فلتترقب فاعلية اسمها ...

وصل القطار وتأهب المسافرون للنزول ... ولاول مرة تلتفت لمن شاركها المقعد وهو شاب في مقتبل العمر كان يتحفز التفاتتها ليلقي على سماعها :

لا يعرف الشوق إلا من يكابده ولا الصبابة إلا من يعانيها

... ضحكت عند حد قوله إذ لمحت مرماه ووجهت له الكلام : « اعتذر الامر ابعد من هذا » ... حملت حقيبتها ونزلت الشارع حيث تنتظرها مآس جديدة ... فليس من عادة مآسيها أن تأتي صدفة ... لن ترتبك عند التعرض لها فهي تعرف من زمان أن غيمة سوداء قد سقطت فوق ربيعها ... ستهرع لها كالعاشق في موعده الاول...ستنتظرها لو تأخرت هذه المرة ... كل ما تريده أن تصل بأقصى سرعة الى مستقبلها لكن جل ما تخشاه أن يطول عمر الشقاء ... أن تجد نفسها ذات ليلة فوق جسر متداع لا تصله حتى الغربان...

عائشة غرسلاوي

تحيّة إلى «الرّجل الصّغير» في العالم

شعر : حسين سفطه

حيـوا الطفولة فى أسمى معانيهـا   ورددوا الشعـر إنشـادا وتنويهـا
فهى اللطافة فاضت فى مساحبهـا   اذا تهـادت على الأنسـام تخفيهـا
وهى البراءة نشر المسك رائدهـا   ضاعت شذى عبقا من فيض واديها
وهـى الـوداعة لا شـىء ينافسها   ـ وقد تجلت ـ لأن الـلـه راعيهـا
أرق من كـل دفـق فى صفـاوته   ومـن سـواق تغنـت فى تثنيهـا
يا ليتنى دمت طفـلا فى سعـادته   وليت كـل حيـاتى فى نواحيهـا
ما الهم يعرف أطفالا وقد مرحـوا   ولا الشقـاوة فى أقسى مطاويهـا
يسعون فى بهجة تعلو نـواصيهم   ويهـزجون عـلى أنغـام حاديهـا
فليهنأوا بغزيـر الخيـر يدفعهـم   الى المـروءة فـى أسنـى معانيهـا
وليسعدوا فى ظروف ملؤها أمـل   والمكـرمـات تغـذيهـم بداعيهـا
حيوا الصبا والصبا فى كل مفخرة   جلت فضائلهـا راقـت مساعيهـا
واستلهموا الهمة القعساء فى دعة   من الطهـارة فى أبهـى مراميهـا
اللـه أكبـر ما أزكـى عواطفهـا   ومـا ألـذ الأغـانى مـن مثانيهـا
هى العـذوبة لا زيـف ولا كـدر   وهـى الفتـوة إجلالا وتنـزيهـا
يا فرحتى بمعانى الطهـر أنظمهـا   مسترسـلات على رنـات شاديهـا
كأننى حين أشدو لم أزل هزجـا   بأغنيـات رقيقـات قـوافيهـا
ثملى تحـاول أن تحيـا مكـرمة   وأن تعيـش على أنقـاض ناعيهـا
لكن فى قرننا هذا قد اخترمت   معالم الطفـل واندكت مبانيهـا

هذا طريد وذاك البؤس يرهقه ... والعنصرية قد عمت مجاليها
هذى الطفولة ما زاغت وما أثمت ... لكننا قد غلونا فى تجنيها
جهل وعرى وتشريد ومخمصة ... ومشقة ومصيبات تعانيها
يا عالما ضج بالمكروه مرحمة ... تجلى متاعبها ، تحيى أمانيها
تثرى مكاسبها ، تنمى مواهبها ... تذكى روائعها تصفى مجاريها
كنتم صغارا فكونوا رمز وحدتهم ... إن الطفولة لا شىء يضاهيها
إن تسعدوها فقد قمتم بواجبكم ... وإن أبيتم فان الله حاميها

حسين سفطة

1 _ 7 _ 79

دواوين من مكتبة الشعر التونسى المعاصر

نوافير .. وتشدو !	**البشير المشرقى**
السجن داخل الكلمات	**محيى الدين خريف**
شواطىء العطش	**الصادق شرف**
الحضور فى زمن الغياب	**حميده الصولى**
أمتاز عليك بأحزانى	**يوسف رزوقه**
الحب .. مع تأجيل التنفيذ	**الصادق شرف**
صوتى مقلوع الأظافر	**حميده الصولى**
غرباء	**سويلمى بوجمعه**
الرحلة فى الأبيات	**رياض المرزوقى**
أقسمت على انتصار الشمس	**المختار اللغمانى**
فى البحث عن مقر	**البشير المشرقى**
مذكرات خماس	**الميدانى بن صالح**

مطالعات

ملاحظات حول كتاب "المنهل"

لتلاميذ السنة الثالثة من التعليم الثانوي المهني

بقلم : عبد الرحمان الكبلوطي

1 ـ تمهيد :

أصدر المركز القومي البيداغوجي في شهر أكتوبر 1979 نشرة تجريبية لكتاب النصوص « المنهل » الذي أعده الأساتذة المنصف العذار والمنصف ذويب ومحمد السيالة وفقا للتعليمات الجديدة التي وضعتها ادارة البرامج التابعة لوزارة التربية القومية في نطاق تجديد المناهج والبحث عن الطرق التي يأمل الاستاذ محمد مزالي وزير التربية القومية أن يتوخاها الاساتذة لمزيد من الاشعاع داخل أقسامهم وكذلك من أجل وضع برامج تتماشى أكثر مع طموحات شعبنا التواق الى الغد الأفضل .

ظهر هذا الكتاب في مائة وأربعين صفحة من الحجم الصغير محتويا على اثنين وخمسين نصا مشفوعة بأجهزتها التربوية من توجمات موجزة لكثير من أصحاب النصوص وتقديم مختصر لظروف تلك المقالات في كثير من الاحيان الى الشرح اللغوي الميسر فالاسئلة المتعمقة في معاني تلك النصوص .

وقد فاز الانتاج التونسي قديمه وخصوصا الحديث منه والمعاصر بنصيب الأسد إذ كان عدد « نصوصنا » خمسة وثلاثين من مجموع اثنين وخمسين ، بحيث قاربت النسبة السبعين بالمائة (70 %) ، كما كان عدد الكتاب والمفكرين والأدباء التونسيين ستة وعشرين علما ، نذكر منهم الرئيس الحبيب بورقيبة وحسن حسني عبد الوهاب ومحمد العربي الكبادي والشاذلي عطاء الله ومصطفى خريف والبشير بن سلامة ومحمد السويسي ونور الدين صمود ومصطفى الفارسي ؛ وقد استمد المؤلفون إنتاج كتابهم من بعض مجلاتنا

ونشرياتنا التونسية كالمباحث والتجديد والفكر ودليل الفلاح الى جانب بعض المجلات الشرقية من نوع العربي وآفاق عربية والدوحة كما اعتمدوا في « المنهل » على القصص التونسية المنشورة كالمنعرج لمصطفى الفارسي وعندما ينهال المطر لابن الواحة ونسور وضفادع للطاهر قيقة وفي بلاد كسرى لعبد الواحد براهم بالاضافة الى حكاية تحت السور لأبي القصة التونسية علي الدوعاجي ؛ وكذلك استمد المؤلفون مواضيعهم من كتب التاريخ والمذكرات ومن أحاديث العلوم ، وأغلبها تونسية من نوع خلاصة تاريخ تونس أو تونس الجديدة أو تونس الثائرة للمرحوم علي البلهوان أو كتاب العمال للطاهر الحداد أو الصين الحديثة للطاهر قيقة ولم ينسوا أن ينظروا في سيرة « محمد رسول الحرية »لعبد الرحمان الشرقاوي ولا في قصص العلماء ورواد الطب ، وقد نقلها المشارقة عن أهل الغرب .

وكذلك وشح صدر المنهل « عقد فريد » من الشعر كان أبرز جواهره « شوق وذوق » لمصطفى خريف و « ينبوع لا يجف » لأحمد المختار الوزير و « النغم الحائر » للهادي نعمان .

2 ـ محتوى الكتاب :

جاء الكتاب موافقا لبرنامج السنة الثالثة من التعليم الثانوي المهني ، وانقسم تبعا لذلك الى ثلاثة محاور رئيسية طرقت المواضيع التالية :

أ ـ **المحور الأول** ، وهو بحث في « القيم الانسانية والاجتماعية من خلال نماذج عظماء الانسانية » وقد كان حافلا بالعظماء فعلا ، منهم محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والحبيب بورقيبة المجاهد الأكبر ، وحنبعل ، وباستور ، وخالد بن الوليد ، وفرحات حشاد ، وغاندي ، وجميلة بوحيرد ، وعزيزة عثمانة ، وابن خلدون ، وأديسون وغيرهم ، وبذلك تكون هذه « القيم الانسانية والاجتماعية » قد اتضحت من خلال تلك الأعلام ، وتوزعت على مناطق العالم غربيها وشرقيها ، تونسيها وأجنبيها ، دينيها ودنيويها ، وتباينت عصورها واختلفت نوعية عظمتها ومجال جهادها .

إلا أني تمنيت لو كان عرض هذه النماذج معتمدا على التسلسل الزمني حتى يستطيع التلميذ ، وهو في التعليم المهني المحدود الدراسة اللغوية والأدبية والعلمية ، أن يتبين في وضوح أن رسالة (محمد) عليه السلام

جاءت قبل عمل (غاندى) وأن جهاد (خير الدين) كان قبل نضال (محمد على الحامى) .

ب ـ **المحور الثانى** ، وهو « العلم والعمل فى خدمة الانسان » ، فقد ظهرت من خلال نصوصه « سيطرة الانسان على الطبيعة واستغلال مواردها » كاختراع الآلة البخارية ومكافحة الحشرات وبناء السد العالى بمصر وسد زرود (سد بورقيبة أو سد سيدى سعد) بقيروان تونس ، وابتكار الآلات الحاسبة بعد أن اكتشفوا « ماكنة الخياطة » التى « تكاد تكون اليوم قطعة أساسية من الأثاث البيتى » ، إلا أنه كان بالامكان بل من المستحسن تدعيم هذه النصوص « **النظرية** » بأخرى عملية مستوحاة من واقع الفلاح التونسى والصانع ، متماشية أكثر مع اختياراتنا فى التشغيل والتكوين ، حتى تكون أقرب الى محيط التلميذ .

ج ـ **المحور الثالث** ، وهو الخاص بالتراث الحضارى ، فقد احتوى على « مظاهر من الفنون الجميلة » مع بيان ما لها من أثر فعال فى « تهذيب الذوق وتكوين الخلق الفنى » ، انطلاقا من معالم القيروان وتونس الى ضخامة معبد الكرنك والآثار العربية بالأندلس الى بعض الخواطر فى الفن وآلاته وراقصيه وراقصاته وفى الحديث عن المسرح والسنما وعن المواهب العالمية أمثال بيتهوفن ؛ وقد كان اختيار النصوص موفقا شمل أبرز فروع الثقافة من فنون وآثار ، ولو أنه كان بالامكان التحدث عن الخلق الفنى عند الادباء والشعراء كذلك .

3 ـ **قصائد « المنهل » ومشاكلها :**

إن الاستجابة لنداء تونسة البرامج الدراسية ولفت نظر ناشئتنا الى انتاجنا التونسى أمر محمود سار على نهجه مؤلفو « المنهل » واقتنعوا كما اقتنعنا بنظرية **الأديب المفكر الأستاذ محمد مزالى** المعمقة لأصالتنا المؤمنة بشخصيتنا التونسية فى غير ادعاء ولا غرور ، المتفتحة على الغير فى غير تفسخ ولا تنكر لأصالتنا ، وأوردوا تبعا لذلك قصائد اختاروها لبعض شعرائنا من أجيال النصف الأول من القرن العشرين ومن أبناء نصفه الثانى كذلك ؛ إلا أن أصحاب « **المنهل** » ، وهم أساتذة وفيهم متفقد ، قد وقعوا ـ والكمال لله ـ فى بعض الهفوات العروضية التى ضعضعت أوزان القصائد المختارة ، أو حرفت جزئيا بعض معانيها ، كما أساؤوا وضع بعض الكلمات فى مواضعها الصحيحة

من الصدور والأعجاز . وأنا أعرف أن مثل هذا الكلام خطير بعض الشيء ، ولا يمكن نفيه أو إثباته إلا بالأدلة ، لذا أعرض على القراء الكرام جدولا في الأبيات « المختلة » الواردة في « المنهل » ، وأقترح « محاولة التصويب » أمامها ، فهي لا تكون شفيعا لزملائي الأساتذة المؤلفين في التبرؤ من تهمة الوقوع فيها:

البيت المختل	محاولة التصويب
— 1 — لأجل الحمى ناديت نفسك (للر دى) وقد صعق الداعي الى يا حماة كتاب المنهل ، ص 11 ، قصيدة جميلة للشاعر الهادى نعمان ، من ديوانه النغم الحائر ، الطبعة الاولى ، ص 55 .	لأجل الحمى ناديت نفسك (للردى) وقد صعق الداعي الى يا حماة بحر القصيد هو الطويل ونوعه : فعوان مفاعيلن فعولن مفاعلن فعولن مفاعيلن فعولن فعول
— 2 — في سجل الخلود تبدو اسمك (الـ خالد) فذا ، يحوطه الاجلال ...وانحنى الغرب إذ رآى منك (عة لا) رائدا لم تشده الاغلال ...وأجبنا، ماذا ترى؟ هل (يعود الدهر) صفوا وهل تحول الحال ؟ كتاب المنهل ، ص 36 ، قصيد ابن خلدون لمصطفى خريف من ديوانه شوق وذوق ، ص ص 113 — 115 .	في سجل الخلود يبدو اسمك (الخا لد) فذا ، يحوطه الاجلال ...وانحنى الغرب إذ رآىمنك(عقلا) رائدا لم تشده الأغلال ...وأجبنا ماذا ترى؟ هل (يعود الد دهر) صفوا وهل تحول الحال ؟ بهذا الرسم تستقيم صدور الأبيات وأعجازها إذ أن بحر القصيد هو الخفيف (فاعلاتن مستفعلن فاعلاتن في الصدر ومثلها في العجز) .
— 3 — انظروا بطنى (المثقل) بالخير(رات) تغرى فذا الزمان زمانى	انظروا بطنى (المثقل) بالخيـ (رات) تغرى ، فذا الزمان زمانى

... أو تجاهلت عاملين ذوى (حــ زم) لهم بعد (فتحت) أحضانى كتاب المنهل ، ص 68 ، قصيد أمنا الأرض لمحمد الأغنج ، مجلة الفكر ، السنة 23 ، العدد 6 ، مارس 1978 ، ص 82 .	... أو تجاهلت عاملين ذوى (حز م) لهم بعد (فتحت) أحضانى بحر هذا القصيد هو الخفيف (مرة أخرى) ، وكى يستقيم الوزن فلا بد من تشديد قـاف (المثقـل) وجعـل حروف (رات) فى العجـز ، لتكون مع الفعل (تغرى) التفعيلة الأولى من العجز وهى (فاعلاتـن) ، وكذلك لا يستقيم وزن البيت الثانى إلا بالرسم المبين أعلاه .
— 4 — هاذى قرى معزولة باتت (يطوقها) الوحل	هذى قرى معزولة باتت (يطوقها) الوحل هذا البيت من مجزوء الكامل ، لا يستقيم إلا بتشديد واو فعل (طوق) أى باستعمال الفعل مزيدا بحرف .
— 5 — أنت (تسلين) قلب من بات يصلى نـار هجـر أنستـه طـول المنـام كتاب المنهـل ، ص 114 ، قصيـد يـا كمنجـاة للشيخ محمـد العـربى الكبادى ، لا مصدر ولا تاريخ ؟!	أنت (تسلين) قلب من بات يصلى نـار هجـر أنستـه طـول المنـام هذا البيت من بحر الخفيف (مرة ثالثة وأخيرة) ، لا يسلم من الخلـل إلا بتسكين سين (تسلين) وتخفيف لامها ، ولو أن معنى الفعل لا يتغير ، إلا أن الشاعر استعمل الفعل مزيدا بالهمزة (أسلى يسلى) .

هذه جملة ملاحظات أردت بها المساهمة فى التعريف بأحد الكتب المدرسية التى أصدرها المركز القومى البيداغوجى باشراف وزارة التربية القومية وتسليط الضوء على محتواها ومبناها متعرضا الى ما يمكن أن يشملها من تنقيح بعد الدرس والتمحيص ، خصوصا وهى « نشرة تجريبية » تحتاج بلا شك الى شىء من التعديل طفيف ، والله يعلم أن القصد من هذا النقد شريف نقوم به خدمة للتعليم فى بلادنا ، وتنويها بالطريف من اختياراتنا .

عبد الرحمان الكبلوطى

أصداء الفكر

● التعريب والمدرسة الادارية :

كنا احطنا علما القراء الكرام بالمائدة المستديرة التى نظمها قدماء تلامذة المدرسة الادارية وخصصنا لها افتتاحية من افتتاحيات الفكر . وعلمنا أن المدرسة القومية للادارة تواصل التعريب بالنسبة لمرحلة تكوين متصرفى الحكومة ومتفقدى المالية فى المواد التالية (السنة الثانية) : ـ القانون الادارى ـ القانون التجارى ـ قانون الالتزامات ـ العلوم الادارية .

كما أنه تم تعريب برنامج التنظيم الادارى والقانون الادارى بالنسبة لفوج الداخلية السنة الرابعة لمرحلة تكوين متصرفى الحكومة .

والى جانب هذا شرع أيضا فى الاستعداد لنشر جزء هام من الدراسات التى يقوم بها مركز البحوث الادارية التابع للمدرسة باللغة العربية وفتحت كذلك صفحات النشرية الدورية التى يصدرها المركز الى نشر الابحاث التى ترد عليه باللغة العربية .

وتعتزم المدرسة القومية للادارة تنظيم مجموعة من المحاضرات والندوات خلال السنة الدراسية الحالية يقوم بها ويشرف عليها عدد من المسؤولين ورجال الفكر والمعرفة على المستوى القومى أو الخارجى وتخصص للحديث حول أهم القضايا المعاصرة وتكون مفتوحة لتلاميذ السنوات الختامية من المرحلتين الوسطى والعليا .

وبهذه المناسبة نتوجه الى السيد محمد شاكر مدير المدرسة القومية للادارة بتهانينا الحارة لتعينه كاتب دولة للاصلاح الادارى ونتمنى له النجاح فى خطته الجديدة ونعتقد أنه سيواصل عمله البناء فى سبيل التعريب وتقريب الادارة من المواطن .

● جريدة الشرق الاوسط والكتب التونسية :

يزداد اهتمام الصحافة المشرقية بما يكتب فى تونس خاصة وان الكتب التونسية تصل بين الفينة والاخرى الى الاقطار العربية وتلفت انتباه الناقدين لطرافة ما فيها من آراء وأفكار .

وهذه جريدة الشرق الاوسط الصادرة بتاريخ 20 / 8 / 1979 تعلق على كتاب « دراسات » للاستاذ محمد مزالى مدير مجلة الفكر ووزير التربية القومية وتؤكد اهتمامها بالادب التونسي . جاء فى هذا العرض ما يلى :

« أدب المقالات عندنا لم يلق بعد ما يستحقه من عناية سواء على صعيد الدراسة أو على صعيد النشر ! هناك مئات المقالات المنشورة هنا وهناك ، فى الصحف والمجلات ،ولا أحد فكر فى جمعها ونشرها فى كتب حماية لها من الضياع ، حتى اصحابها وأعني الاحياء لم يفكروا فى جمعها ونشرها من جديد مع انها تشكل زاوية مهمة من زوايا الادب .

اما مقالات الاموات وهى كثيرة وذات جدوى كبيرة من واجب دور النشر ان تعتنى بها فتجمع المفيد منها وتنشرها فى كتب .

وهذه المقالات القديمة منها والجديدة ، فيها ما يثرى حياتنا الثقافية ، وفيها ما يلقى الضوء على هذا المجال أو ذاك الوضع ، وفيها كذلك تسجيل لبعض جوانب حياتنا السياسية والفكرية والاجتماعية . ولذلك فان فى جمعها خدمة جليلة نقدمها للدارسين والباحثين والمثقفين . وفى جمعها أيضا محافظة على جزء مهم من تاريخنا وأدبنا وحماية لانتاجنا الثقافى من الضياع والنسيان .

وفى بلدان أخرى كثيرة ، نجد المقالات التى تنشر فى الصحف والمجلات تشكل نسبة كبيرة من كتب هذه البلدان . فالكتب فى هذه البلدان تتغذى من المقالات وبها تتحول الى كتب ، اى ان تلك المقالات تنشر اولا فى الصحف والمجلات ثم تجمع وتنشر فى كتب فيقبل عليها الناس من الخاصة والعامة بنفس الاقبال الذى اقبلوا به عليها وهى منشورة فى الصحف والمجلات .

ولك فى كتاب مصر أروع دليل على ما أقول ، فهؤلاء الكتاب لا يفرطون فى مقالاتهم مهما كانت قيمتها وجدواها ، وينشرونها فى الصحف والمجلات وبعد سنوات قد تطول أو تقصر يعودون اليها فيجمعونها ويقدمونها لاحدى دور النشر لتعود اليهم وقد تحولت الى كتاب .

وهناك مئات الكتب العربية التى تقوم على المقالات منها ما نشرته مصر ومنها ما نشره لبنان وتلقى نفس الرواج الذى تلقاه كتب الرواية والشعر والدراسة . وكتب رجاء النقاش ولويس عوض وأنيس منصور وغيرهم كانت فى الاصل مقالات كتبها اصحابها لصحف ومجلات مختلفة . ولطه حسين والعقاد والزيات والمازنى وغيرهم من القدامى كتب مادتها مقالات اذاعوها بين الناس عن طريق صحف ومجلات قديمة اغلبها توقف عن الصدور ، ولقد

أصبحت المقالات في عالمنا المعاصر خبز المطابع وغذاء الكتب ، فلماذا نهملها ونحكم عليها بالاعدام !. لقد أحسن الاستاذ محمد مزالى وزير التربية القومية فى تونس للادب التونسى عندما جمع مقالاته ودراساته المختلفة ونشرها من جديد وآثر لها استمرار الحياة والبقاء ، فى مقالاته ما يقرأ اليوم والغد ، وفيها ما يضيء حياتنا الثقافية اضاءات قد تختلف فى تحديد المساحات التى تلقى عليها الضوء ، ولكننا لا نختلف امام ضرورتها ، فهى ضرورية لكل من سيدرس حياتنا فى سنواتها الاخيرة من جميع وجوهها .

فى كتاب الاستاذ مزالى الذى صدر عن الشركة التونسية للتوزيع تحت عنوان : « دراسات » 15 مقالة كلها ذات صلة بحياتنا فى تونس تقرأها فتفهم مقاصد الكاتب بيسر ، لانها كتبت بلغة مبسطة ، وبأسلوب سهل ، فلا غموض ولا رمز ، ولا تعقيد أو زخرفة فالكتابة عند الاستاذ مزالى تعبير عن أفكار كما أشار هو الىذلك فى كتابه الجديد .

وكتاب « دراسات » كما قال الاستاذ مزالى فى المقدمة يكمل كتابه السابق « مواقف » ويحتوى ــ مثله ــ على جملة من المقالات المنشورة بمجلتى «الندوة» و « الفكر » وعدد من المحاضرات التى ألقيت فى مناسبات شتى وتناولت مواضيع مختلفة ، منها اثنتان يرجع بهما العهد الى سنة 1949 أى الى ربع قرن مضى » .

« وقد دفعنى الى نشر هذه النصوص ما لقيه كتاب « مواقف » من اهتمام شد أزرى .وما حظى به من تشجيع ثبت قدمى وحملنى على المثابرة ، وآمل ان يجد القراء فى « دراسات » فائدة أدبية وشاهدا تاريخيا ، وان يحفز كل الادباء والمثقفين على الانتاج ثم الانتاج ، فالانتاج ، والاقدام على النشر رغم الصعاب ، دون ان يعبأوا بابتسامات القاعدين وتشكك المتفرجين ، فحركية الخلق اذا ما توفرت اسبابها النفسية وتهيأ مناخها الحضارى فانطلقت ، لا تعرف الانتكاس » .

« والادب التونسى فى حاجة ــ ليزدهر ويشع ــ الى مزيد من ثقة التونسيين بأنفسهم ، وفى حاجة الى ثبات رجال الفكر والادب فى مواقفهم ، والى طول النفس فى انجاز مشاريعهم » .

« اما أنا فقد حاولت ، واجتهدت وسأواصل » والمقالات المنشورة فى الكتاب يتحدث صاحبها فيها عن عدة موضوعات هامة جدا بعضها ما زال يشغلنا الى الآن ، فمن الموضوعات التى طرقها موضوع مسؤولية الكاتب وحريته وبأية

لغة يكتب والى اى هدف يهدف وأى موقف يختار فى أوقات الشدائد والازمات الخ ...

ومن الموضوعات التى اثارها كذلك الاستاذ مزالى موضوع الشباب ودوره فى الحياة ، ودور التعليم فى تكوين الشباب ، وفى رأى الكاتب ان التعليم « الصالح يكون الشباب لأنه يعلمهم التمييز بين الحق والباطل وبين الخير والجمال والقبح والصالح والطالح ، ولأنه يغرس فيهم أيضا جملة من الصفات الضرورية لتكوين الشخصية كالثقة فى النفس والاعتماد على الذات والوفاء الى القيم والصدق فى القول والاخلاص فى العمل وثبات العزيمة والصمود فى الملمات » ٤.

ويقول الاستاذ مزالى انه رغم ازمة الوعى التى يعيشها الشباب التونسى كغيره من شباب العالم فانه « لعب دورا فعالا فى الربع الثانى من القرن العشرين انسجم مع الأمة وتعلق بها تعلقا « عفويا » اذ لا يجهل أحد كيف تحمل الشبان التونسيون اعباء الكفاح التحريرى فى جميع مراحله واضطلعوا بأنواع المسؤوليات فيه واتحدوا فى الاتجاه مع بقية عناصر الامة مما لا فائدة فى تأكيده والتدليل عليه » .

« ومعنى ذلك ان الشباب التونسى رغم ازماته التى تخرج به عن جماعته أو تشده الى الماضى شدا آليا لم يمسخ تماما ولا هو انحل وانخذل أو ذاب فى غيره أو تحجر ، ذلك ان عاملا قويا اثر فيه واعانه على تجاوز ازمته والتغلب على « همومه » وكان له رائدا ومرشدا ، واعنى به الوعى القومى والحركة التحريرية ، هو « الشعور » بانتسابه الى أمة فيها نشأ واليها يرجع ، هى الوطنية وما ستتبعه من تحليل لمقومات الامة وتشبث بهذه المقومات وذود عنها » .

« لذا تعلق الشباب التونسى بالدين الاسلامى وحضارته وان جهل اركانه وتعلق باللغة العربية وان هو لم يحذقها وتعلق ايضا بتاريخ هذه البلاد بأمجادها وأيامها الغر وان هو لم يحط بها باعتبارها من دعائم الوطن » .

وقد خصص الاستاذ مزالى فى كتابه أربع مقالات لمسائل الشباب فتحدث عن : منزلة الشباب التونسى ـ الشباب التونسى : واقعه وطرق النهوض به ـ دور المصائف فى تكوين جيل الغد .

وفى الكتاب مقالات أخرى عن على البلهوان المناضل والمفكر ، وعن المواطن والدولة ، وعن تعليم الفتاة التونسية ، وغيرها من الموضوعات التى يعد

الخوض فيها من المسائل الضرورية فى حياتنا الثقافية التى تحتاج الى مزيد من الحوار والنقاش » .

● **ندوة الترجمة :**

انعقدت بتونس من 12 الى 14 نوفمبر 1979 تحت اشراف المنظمة العربية للتربية والعلوم والثقافة ندوة للترجمة ضمت خبراء قدموا فى آخر اجتماعهم تقريرا حول وضع الترجمة فى الوطن العربى والخطة الممكن اتباعها لتقوم الترجمة بدورها الفعال فى النهضة بالوطن العربى النهضة الشاملة .

● **فهرس الترجمات :**

جاء فى وقائع اليونسكو (مجلد 15 عدد 2) ما يلى :

صدرت مؤخرا الطبعة السابعة والعشرون « لفهرس الترجمات » وهو يشتمل على احصاء 46.384 ترجمة خلال سنة 1974 فى 62 بلدا وعلى سبيل المقارنة تجدر الاشارة الى أن الطبعة الاولى كانت تناولت 8.570 ترجمة لعام 1948 .

● **بنزرت عبر العصور :**

هذا كتاب لصديقنا الاستاذ حمادى بن حماد مدير مجلة « ديالوف » صدر فى هذه الايام على نفقة صاحبه ويحكى قصة مدينة بنزرت منذ أول تأسيسها . وقد سبق لهذا الكتاب « أن نشر باللغة الفرنسية سنة 1974 ولاقى الرواج الكبير وقد تشرف المؤلف باهداء النسخة الاولى منه الى الرئيس الحبيب بورقيبة وحتى لا يحرم منه قراء العربية فى هذه الربوع رأى المؤلف إعادة نشره فى لغة الضاد ... » .

ويشتمل الكتاب على كل الوقائع والاحداث التى مرت بها بنزرت منذ القرن التاسع قبل الميلاد حتى نهاية الحرب العالمية الثانية معتمدا على مصادر ثابتة تناولت بالدرس والتمحيص تاريخ تونس القديم وإن لم يغفل تاريخها المعاصر » .

نشكر صديقنا على هديته ونتمنى لكتابه فى نسخته العربية الرواج .

● **محمود المسعدى وكتابه « السد » :**

أصدرت الدار التونسية للنشر كتاب « محمود المسعدى وكتابه السد » جمع وتعليق وتقديم نور الدين صمود . طبعة ثانية جديدة منقحة ومزيدة .

عدد صفحاته : 176 تضم أربعة عشر فصلا منها : طه حسين ينقد السد . مصر تكرم صاحب السد . نقاش أدبى حول رواية السد . ممزالى يتحدث عن المسعدى وأدبه . المسعدى يتحدث عن أدبه . ومن حديث مزالى عن المسعدى قوله : يظهر أن المسعدى تأثر بالميثولوجيا اليونـانية وبالمفكـرين الاوربيين وخاصة الكاتب المسرحى الدانماركى : إبسن . وقد عيب عليه تاثره بكامو ، ولكن هذا الرأى غير مصيب لأن السد كتب قبل ظهور آثار كامو .

ينبغى أن لا ننسى أن المسعدى فى السد يكاد يكون خلق العربية من جديد من حيث العبارات ومن حيث الصور .

● **مجموعة شعرية جديدة : « نوافير وتشدو » :**

بعد المجموعة الأولى « فى البحث عن مقر » ها هو الشاعر الصديق البشير المشرقى يصدر أخيرا وعلى نفقته أيضا مجموعة ثانية تحت عنوان « نوافير .. وتشدو ! » التى طبعها ببنزرت « مطبعة الحياة » .

ولئن كانت المجموعة ضئيلة الحجم فهى مضغـوطة بالصـور الشعـرية ، والكلمة الموحية ، والتعبير الرقيق ، ذات قصائد عديدة تحمل عناوين تتراوح بين المباشرة والايحاء منها : « الى وفاق الحرف » التى يقول فيها :

الصدق .. كل الصدق أن نقول حرفا واعيا ..

صـداه يبقـى بعدمـا نكـون عظمـا واهيا :

فالزهر يفنى دائمـا .. والعطـر ليس فانيا .

والملاحظ أن بعض القصائد تدل دلالة واضحة على أن الشاعر يتعامل مـع الساحة الأدبية ويتواجد مع المتواجدين باستمرار بحكم أنه يلغى الغيـاب من ذهنه فتكون ممارساته أدبية بحق وعطاءاته انسانية فعلا .

● **مشروع «موسوعة السيرة النبوية :**

للمركز الاسلامى للبحوث والدعوة بدلهى مشاريع عديدة فى حقل المعرفة الاسلامية والدعوة اليه فى تلك الاصقاع من العالم بين أقـوام ملـل ونحـل شتى ، ومن بين هذه المشاريع يقوم رئيس المركز الاسلامى الاستاذ وحيد الدين خان المشرف على مجلة « الرسالة » باعداد وتنفيذ « موسوعة السيرة النبوية » تبرز حياة رسول الاسلام بصورة علمية جامعة وكاملة .

وستكون الموسوعة هذه تحمل طابع المعاصرة مع الوضوح مشتملة على الأجزاء التالية : (على وجه التقريب) :

الجزء الأول : الوقائع بأسلوب تاريخي مبسط .

الجزء الثاني : تعاليم الرسول في ضوء القرآن والسنة

الجزء الثالث : دعوة الرسول وأسلوبه والثورة التي فجرها .

الجزء الرابع : آثار حركته على تاريخ العالم .

الجزء الخامس : هدايته للعصر الحاضر .

ويقوم المركز الاسلامي بدلهي بخطة موسعة في ترجمة معاني القرآن الكريم بمختلف اللغات . وتدوين أحوال الشعوب والانبياء المذكورين في القرآن بأسلوب تاريخي حديث . وبجمع الاحاديث النبوية القوية الاسناد . ووضع معجم لأعلام الاسلام وأهم شخصيات التاريخ الاسلامي .

● **الرق .. ماضيه وحاضره :**

تحت هذا العنوان أصدر المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب بالكويت كتاب « عالم المعرفة » نوفمبر 1979 من تأليف د. عبد السلام الترمانيني .

ومن عناوين هذا الكتاب : موقف الفلاسفة من الرق . موقف الديانات من الرق . ثورات العبيد . المركز القانوني والاجتماعي للرقيق . زوال الرق في أوربا . مراحل إلغاء الرق . استمرار الرق وفي هذا الباب الاسترقاق الجنسي . الاسترقاق بالتضليل والخداع . الاسترقاق بالتبني . دور المخدرات في الاسترقاق الجنسي . الوضع الحالي للرق ووسائل مكافحته وهو آخر فصل من الكتاب القيم وينهيه المؤلف بقول الشاعر :

ما أقرب اليوم من امسه

ما أشبه اليوم بالبارحه

● **الجزء السابع عشر من « تفسير التحرير والتنوير » :**

أصدرت الدار التونسية للنشر والشركة الوطنية للنشر والتوزيع بالجزائر أخيرا الجزء السابع عشر من كتاب : تفسير التحرير والتنوير تأليف : الشيخ الطاهر بن عاشور .

ويحتوي هذا الكتاب على 360 صفحة من الحجم الكبير ، وهو عبارة عن تفسير شامل لسورتي « الأنبياء والحج » .

وقد انتهى طبع هذا الكتاب بتونس فى شوال 1399 / سبتمبر 1979 .

● **مجلة « العلم والتعليم » :**

افتتاحية مجلة « العلم والتعليم » التى يديرها الاستاذ أحمد الشرفى تحت عنوان « تكريم طبيب أصيل » تشيد ببادرة تعريب الطب فى تونس .

وبعد التنويه بهذه البادرة العلمية الجليلة نقرأ من بحوث ندوة تعريب الكيمياء بنابل جويلية 1979 :

1) قضايا ومشاكل تعريب الكيمياء : للدكتور عادل جرار (الأردن) .

2) قواعد ايجاد المصطلحات : للدكتور محمود داول (سوريا) .

كل هذا جاء فى العدد 37 من مجلة « العلم والتعليم » فى سنتها الخامسة 1979 .

● **دور الأدب العربى فى مواجهة التحديات الراهنة :**

تحت هذا الشعار تقرر عقد المؤتمر الثانى عشر للاتحاد العام للادباء والكتاب العرب يوم 24 نوفمبر 1979 وذلك فى عاصمة سوريا « دمشق » كما سينتظم هناك مهرجان الشعر العربى .

وقد علمنا أن الوفد التونسى يتكون من الأساتذة: محمد العروسى المطوى ـ جعفر ماجد ـ نور الدين صمود ـ محيى الدين خريف ـ على دب .

نتمنى للمؤتمر التوفيق والنجاح فى أعماله خدمة للثقافة العربية وآدابها .

● **المجلس التنفيذى للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم :**

من 17 الى 19 أكتوبر تم عقد الندوة الثانية للمجلس التنفيذى للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم بتونس . وفيها وقعت دراسة موازنة المنظمة والأجهزة التابعة لها لسنة 1980 ـ 1981 .

كما استعرض المجلس برنامج ادارة التربية والتعريف باستراتيجية التربية العربية التى وقع اعدادها من قبل وحصلت الموافقة عليها من طرف وزراء التربية العرب .

● **المدينة تلعن أبناءها :**

مجموعة قصصية صدرت أخيرا بحلب للأديب الشاب : **على جديد** وتضم سبع قصص تعالج بشىء من العمق بعض المشاكل الاجتماعية الناجمة .

نشكره على هديته ، ونتمنى له مزيدا من تجذير التجربة القصصية والتطلع لمستقبل الابداع الدائم فليس أصعب الأمور أن نبدأ ، ولكن أصعب الأمور أن نواصل ما بدأنا .

● الكرونوبسيكولوجيا أو علم النفس الزمنى :

تحت هذا العنوان أصدر الاستاذ الشاذلى الساكر . توزر . كتابا قيما فى علم جديد قام بوضعه وبطبعه ـ وان كان الكتاب باللغة الفرنسية ـ فهو قيم كما قلنا ويحتوى على ثلاثة محاور :

1) وصف مميزات الطاقة الحيوية وأهم ملكاتها .

2) وصف أهم حالات الطاقة الحيوية .

3) القوانين التى تتحكم فيها وفى ملكاتها وفى حالاتها .

هذا مع ثلاث حواش حول تاريخ الطاقة الحيوية وحول كيفية الدخول الى بعض الحالات . وحول الحالات عند الحيوان .

نكبر فى المؤلف هذا المجهود العلمى ونتمنى له التوفيق فى أعماله القادمة .

● الاحتفالات بالقرن الخامس عشر الهجرى تستمر خمس سنوات :

وضعت الامانة العامة للمؤتمر الاسلامى برنامجا عالميا ضخما سيغطى العديد من عواصم العالم فهناك المؤتمرات والمعارض العالمية التى ستوزع على الشكل التالى :

ـ مؤتمر عالمى حول السيرة النبوية (فى قطر) .

ـ مؤتمر عالمى حول الشريعة والقانون الاسلامى ومعرض للكتب الباحثة فى الاسلام (فى الاردن) .

ـ معرض للكتب الباحثة فى الاسلام يعقده المجلس الاسلامى الاوربى باللغة الانقليزية (فى لندن) .

ـ ندوة حول الحضارة الاسلامية والمشاكل المعاصرة (فى السنغال) .

ـ مؤتمر حول التاريخ الاسلامى (فى دمشق) .

ـ ملتقى اسلامى لبحث المشاكل الاقتصادية على أوساط المجتمع الاسلامى (فى ليبيا) .

ـ مؤتمر عالمى لدراسة أنشطة التبشير فى أوساط المجتمع الاسلامى (فى ماليزيا) .

ـ مؤتمر عالمى حول تأثير الاسلام فى الثقافة والحضارة البشرية وتقييم دوره فى المستقبل (فى باكستان) .

ـ مؤتمر عالمى عن الاسلام فى افريقيا (فى مالى) .

ـ مؤتمر عالمى عن الدعوة الاسلامية (فى السودان) .

ـ معرض للعلوم والتكنولوجيا الاسلامية (فى ايران) .

ـ اجتماع للشبيبة الاسلامية فى العالم (فى تركيا) .

ـ معرض للفنون الاسلامية (فى تركيا) .

ـ مؤتمر عالمى حول دور الجامعات ومراكز الدراسات العليا الاسلامية فى تطوير الحياة والثقافة الاسلامية (فى المغرب) .

ـ ندوة عالمية عن الاسلام وتحديات العصر الحديث (فى أمريكا الشمالية) .

ـ معرض الكتب الانقليزية الباحثة عن الاسلام (فى أمريكا الشمالية) .

ـ مؤتمر عالمى لتطوير اللغة وتوسيع انتشارها ودعم صفتها العالمية (فى بغداد) .

ـ ثلاثة مؤتمرات حول الرسول الكريم والرسالة ينظمها المجلس الاسلامى الاوربى (فى لندن وباريس ويوغسلافيا) .

ـ ملتقى خامس لمناقشة الطب الاسلامى وآخر للتقويم الاسلامى وتقييم لجوانبه المتعددة (فى الجزائر) .

ـ مؤتمر حول الطب الاسلامى (فى الكويت) .

ـ مؤتمر لبحث دور جامع الزيتونة عبر العصور (فى تونس) .

فعاليات أخرى : ويقول مقرر اللجنة ان هناك فعاليات ونشاطات أخرى كثيرة على مستوى عالمى منها دعوة شركات الخطوط الجوية وسائر شركات النقل والسياحة فى البلاد الاسلامية لوضع أجور مخفضة للسفر لتشجيع التنقل بين البلاد الاسلامية .

وسيتم اعتماد شعار موحد خاص بموضوع الاحتفال بالقرن الهجرى الجديد والهدف الذى يرمى اليه وسيتم وضع نموذج موحد لمجموعات تذكارية من

الطوابع والعملة النقدية الورقية والمعدنية ترمز الى وحدة الامة الاسلامية تضعه كل دولة قيد التداول فى بلادها مع بعض التعديلات الطفيفة التى قد تتطلبها الظروف .

وعن الموعد الذى ستبدأ فيه مختلف أنواع الفعاليات المذكورة والمدى الزمنى الذى ستستغرقه هذه الاحتفالات يقول السيد حبيب الهرمزى ان القرن الخامس عشر الهجرى يبدأ كما هو معروف من عام 1401 هجرية الموافق 1981 ميلادية ونظرا لضخامة الاحتفالات وتنوعها على العديد من بلدان العالم تقرر توزيع الفعاليات على مدى خمسة أعوام وسيبدأ العام الاول للاحتفالات مع بداية سنة 1400 الهجرية 1980 ميلادية .

وقد تقرر تشكيل لجنة ثقافية فرعية لشؤون الثقافة والنشر تتولى النظر فى الطلبات حول نشر البحوث وطبعها واحالتها الى اللجنة العليا ...

ولا يفوتنا بهذه المناسبة أن نهنىء الاستاذ الحبيب الشطى بانتخابه أمينا عاما للمؤتمر الاسلامى ؛ وفى انتخابه شرف لتونس .

● **المركز الاسلامى للبحوث والدعوة بدلهى :**

لقد أنشىء المركز الاسلامى للبحوث والدعوة لنشر التعاليم الاسلامية بأسلوب عصرى يؤثر على المثقفين المسلمين وغير المسلمين على السواء . وهذا المشروع نتاج سنوات طويلة من الجهود المضنية التى قام بها الاستاذ وحيد الدين خان ، الباحث والمفكر الاسلامى المعروف فى شبه القارة الهندية ، والذى لقيت كتبه اقبالا كبيرا فى العالم العربى . وأحد كتبه [الاسلام يتحدى] مقرر فى المنهج الدراسى لكل من جامعة الازهر وجامعة طرابلس .

وأول مشروع نشرى بدأه المركز هو مجلة [الرسالة] الشهرية ، باللغة الأردية ، التى تقدم دراسات جادة عن الاسلام وقضايا العصر الحديث .

وقد بدأ نشر بعض المقالات المختارة من [الرسالة] فى سلسلة كتابية من بيروت بعنوان [الاسلام والعصر الحديث] ومن القاهرة ضمن سلسلة [نحو وعى اسلامى] .

ومن خطط المركز الاسلامى : نشر الابحاث والمجلات ، وانشاء جامعة الدراسات القرآنية لدراسة ونشر رسالة القرآن الكريم ، واعداد مجموعة كتب مخصصة للدعوة الاسلامية بالأسلوب العصرى وبمختلف اللغات الحديثة. ومن الكتب التى نشرتها مكتبة الرسالة التابعة للمركز : الاسلام (176

صفحة) ، وظهور الاسلام (199 صفحة) باللغة الأردية . ومن المنتظر أن تظهر للترجمة العربية والانقليزية لهذه الكتب خلال سنة 1979 .

والمركز يخطط للتوسع فى نشاطه حتى يصبح مؤسسة عالمية لنشر الدعوة فى انحاء المعمورة .

ان هذا البرنامج غير سياسى وغير تجارى ، وقد وضع لهدف نبيل ، الا وهو خدمة الاسلام ونشر الدعوة . والمركز يرحب بالمشاركة والتعاون من كل انحاء العالم من كل الذين يؤمنون بأن الدعوة من المسؤوليات الاساسية الملقاة على عاتق كل مسلم .

ومن اهداف هذا المركز الاسلامى :

– العمل على تنشيط تقديم التعاليم الاسلامية بصورة علمية وتطبيقها فى الحياة اليومية .

– تدريب وتعليم الاشخاص الاكفاء للقيام بالدعوة الاسلامية .

– الجهاد ضد قوى الالحاد والضلال والتخريب الفكرى والاخلاقى ، والعمل على تنشيط الحب بين البشر .

● **متابعات ثقافية من تونس :**

ما زالت « المحرر المغربية » تتابع أخبار الثقافة ببلادنا عن طريق ما يصلها من المراسل الصحافى الاديب رشيد الذوادى وهذا ما نشرته جريدة المحرر فى عددها الصادر بتاريخ 19 / 9 / 1979 :

مجلة « الفكر » التى يديرها المفكر محمد مزالى دخلت بعددها الاخير عطلتها السنوية التى تدوم شهرين وانهت بذلك سنتها الرابعة والعشرين .

ومن المعلوم أن عددها الاخير اشتمل على مجموعة الدراسات والمقالات الى جانب الانتاج الادبى المتنوع بين الشعر والقصة والخاطرة . وقد كتب افتتاحية العدد الاستاذ محمد مزالى مدير المجلة تحدث فيها من جديد عن « الاصالة » فأبرز أن الأصالة التى ندعو اليها وننشدها هى أصالة تفتح لا انغلاق أو تقوقع . وأن التفتح اطلاع وتطلع وتعرف الى خصائص الآخرين وأسرار عبقريتهم والعمل على التحاور معهم وإفادتهم قدر المستطاع ، فالأصالة تقوم على منطق الاحترام المتبادل والأخذ والعطاء .

الفهـرست

العـدد 3 ـ ديسمبـر 1979 السنـة الخامسة والعشـرون

الفكر
مجلة ثقافية

مؤسسها ومديرها المسؤول
محمد مزالى
رئيس التحرير : **البشير بن سلامة**
تصدر بتونس شهريا
الادارة : 13 نهج دار الجلد ـ تونس
تلفون : 260.237
الحساب الجارى : 33769 ـ تونس
العنوان : صندوق البريد 556 ـ تونس

- تصدر مجلة الفكر عشر مرات فى السنة وتحتجب فى شهرى اوت وسبتمبر
- قيمة الاشتراك السنوى :

اشتراك عادى بتونس والبلاد العربية 5 دنانير
اشتراك بالخارج 6،000 ستة دنانير
اشتراك الانصار 10 دنانير

- الاشتراكات يرسل معلومها فى حوالة بريدية باسم المجلة او يصب فى حسابها الجارى : 337.69 ـ تونس
- الرسائل لا ترد نشرت ام لم تنشر
- المراسلات تكون جميعا باسم :

مدير مجلة « الفكر »
صندوق البريد عدد 556 ـ تونس

EL-FIKR-revue mensuelle culturelle 25° Année N° 3 Dec. 1979

طبع الشركة التونسية لفنون الرسم 20 نهج المنجي سليم تونس
تحت رقم 1167 / 79 - الايداع القانوني 4 / 79